

الإسكندرية

طبوغرافية المدينة وتطورها
من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر

تمهيد :

في سنة ٣٣٢ ق . م اتجه الإسكندر الأكبر بجيشه المظفر نحو مصر ، ودخل العاصمة ممفيس ، وزار أول ما زار معبد الإله « بتاح » حيث تتوج ملكاً على البلاد ، ثم زار بعد ذلك معبد « آمون » في واحة سيوة . وهناك نودى به ابناً للإله « زيوس آمون » ، فقد اعتبره المصريون مخلصاً لهم من نير الفرس وظلمهم . وفي عودته من سيوة مرّ بقرية صغيرة على شاطئ البحر كانت سكناً لنفر من الصيادين ورعاة الأغنام ، فأعجبه موقعها ، وبدأ يفكر جدياً في اختيار هذا الموقع لبناء مدينة كبيرة تحمل اسمه ؛ تلك هي قرية « راقودة » أو « راكوتيس » .

وكان الإسكندر موفقاً في اختياره ، فللموقع مزايا جمة تجعله صالحاً لإنشاء مدينة كبيرة وميناء ممتازة ، فهو شريط من الأرض ضيق طويل ، يشرف عليه البحر من الشمال ، وتحده من الجنوب بحيرة مريوط ؛ وعلى مقربة من الشاطئ تجتم جزيرة فاروس بصخورها كحاجز طبيعي يحمي المدينة المنتظرة ، ويحمي السفن الشراعية عند دخولها إلى هذه الميناء الطبيعية وخرجها منها .

أما بحيرة مريوط في الجنوب فكانت تصل المدينة المرتقبة بالنيل بوساطة ترعة « شيديا » القديمة التي كانت تقوم مقام ترعة المحمودية الحالية أو الخليج الناصري في العصور الوسطى ؛ وعن هذا الطريق أيضاً تستطيع المدينة أن تتصل بالبحر الأحمر — طريق التجارة الهام إلى الشرق الأقصى — وهذا يؤهل المدينة لأن تكون ميناء صالحة لنقل تجارة الهند والشرق إلى بلاد اليونان والعالم الخارجي ، وهو ما كان يهدف إلى تحقيقه الإسكندر الأكبر بعد أن اتسمت إمبراطوريته

وأصبحت تضم إليها هذه الإقطار المتباعدة من القارات الثلاث : أوربا وآسيا وأفريقيا ؛ والإسكندرية ستكون مدينة على البحر الأبيض المتوسط قريبة من شواطئ هذه القارات الثلاث المطلة على هذا البحر ، وتكاد تتوسط أملاك الإسكندر جميعاً .

وميزة أخرى جعلتها تتفوق على موانئ مصر الشمالية الأخرى : رشيد ودمياط والفرما ، ذلك أن التيارات المائية في شرقي البحر الأبيض المتوسط تُخضع هذه الموانئ لعاملَي التآكل والإرساب ، وتفقدوها بذلك عامل الصلاحية ، أما الإسكندرية فوقعها في الغرب ينجوها من هذا كله .

وقد عهد الإسكندر إلى مهندس « دينوقراطيس Deinocratis » بتخطيط المدينة ، فاختار لها النمط اليوناني المعروف وقتذاك في تخطيط المدن ، وقسمها إلى شوارع مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة ، وأساعده على ذلك كون الرقعة المخصصة لإنشاء المدينة مستطيلة الشكل ؛ وقد بدأ بتخطيط المدينة في عهد الإسكندر ، غير أنها لم تتم إنشاء ولم تتخذ عاصمة إلا في عهد البطالمة (١) .

وقد خضعت الإسكندرية منذ إنشائها حتى اليوم إلى ما تخضع له مدن العالم الكبرى ، فارتفعت بها الجهود أحياناً حتى كانت أكبر مدينة في العالم ، ثم انحط بها الزمن أحياناً أخرى وأصابها الخراب والدمار حتى كادت تكون نسياً منسياً ؛ وضاعت مع هذه العوامل أو تلك معالم المدينة القديمة حتى قبض الله لها بعض الباحثين المحدثين ، فراحوا ينقبون عن آثارها ، ويتبعون معالمها ، ونتيجة لهذه الجهود الموفقة أصبح من الممكن وصف المدينة القديمة وصفاً — إن لم يكن دقيقاً — فهو أقرب ما يكون إلى الدقة التي ننشدها .

والفضل الأكبر في تعريفنا بالمدينة القديمة ومعالمها يرجع إلى المهندس

(١) انظر المقالات الآتية، ففيها تفاصيل إضافية عن الإسكندرية في عصرها الأول : زكي علي : (الإسكندرية ، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالمة) ، بحث نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، العدد الثاني ، ١٩٤٤ ؛ العدد الرابع ، ١٩٤٨ . و(الإسكندرية في عصر البطالمة والرومان) ، بحث نشر في كتاب : «الإسكندرية» الذي أخرجه غرفة الإسكندرية التجارية في سنة ١٩٤٩ .

المصري الكبير محمود الفلكي باشا ، فقد عهد إليه الخديو إسماعيل باشا في سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥) بدراسة طبوغرافية المدينة ورسم خريطتين لها : إحداهما لتبيان معالمها القديمة في العصرين اليوناني والروماني ، والثانية لتبيان معالمها الحديثة كما كانت وقت رسمها ، أي في عصر إسماعيل ، وقد أجاب محمود بك (باشا فيما بعد) الدعوة ، ورسم الخريطتين ؛ وهما حتى اليوم أوثق المراجع^(١) لدراسة طبوغرافية المدينة في العصرين القديم والحديث .

ونحن - اعتماداً على خريطة الفلكي باشا ، وعلى ما كتبه شرحاً لها^(٢) ، وعلى الأطلس التاريخي للمدينة الذي نشره « مسيو جوندت Jondet » ، وعلى ما كتبه « مسيو برتشيا Breccia »^(٣) - مدير المتحف اليوناني الروماني السابق - عن المدينة ، نوجز فيما يلي وصف المدينة وأهم معالمها البارزة كما كانت في العصرين اليوناني والروماني

(١) انظر مقدمة :

Jondet (Gaston) : Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie. Le Caire, 1921. (Mémoires présentés a la Société Sultanieh de Geographie, tome II.).

(2) Mahmoud El-Falakyy Bey (Memoire sur l'Antique Alexandrie) Copenhague, 1872.

(3) Breccia (Alexandria ad Aegyptum) Bergame, 1914.

ولن يريد التوسع في البحث أن يرجع إلى المراجع الآتية :

- الدكتور إبراهيم نصحي بك ، مصر في عصر البطلمة جزآن ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

- محمد مسعود ، المنحة الدهرية في تخطيط الإسكندرية ، الإسكندرية ، ١٣٠٨ هـ .

- على مبارك باشا ، الفصل الكبير الذي كتبه عن الإسكندرية في (الخطط التوفيقية الجديدة ، الجزء السابع كله) .

- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ ، الفصل الكبير الذي كتبه عن الإسكندرية في (المواعظ

والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٨٣ ، طبعة النيل ، ١٣٢٤) .

- ابن دقاق (إبراهيم بن محمد بن أيمن العلائي) ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ،

ج ٥ ص ١١٦ - ١٢٦ ، بولاق ، ١٣١٠ هـ .

- السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٤٢ .

- ياقوت ، معجم البلدان ، مادة « أسكندرية » .

- فؤاد فرج ، الإسكندرية ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٢

— A.M. de Zogheb : Etudes sur l'Ancienne Alexandrie, Alex. 1910.

— Tarn (W.W.) : Hellenistic Civilisation, London, 1930.

— Enc. Islam. Art : Alexandria.

— Jones (A.H.M.) : The Greek City. Oxford, 1940.

في العصر اليوناني

لم يشهد عصر الإسكندر غير تخطيط المدينة وإقامة بعض المباني ، أما عصرها المزدهر فهو عصر البطالمة ، فقد بقيت ممفيس وهي العاصمة وقتاً ما في عهد بطلميوس الأول بعد استقلاله بمصر ، وإليها نقل جثة الإسكندر ، وبها دفنها ، ثم بدا له أن يتخذ الإسكندرية عاصمة للملكة الجديد ، فانتقل إليها ، ونقل إليها جثمان الإسكندر ، وكان يطلق على هذا الجثمان اسم « سوما Soma » ثم حرف اللفظ فيما بعد إلى « سېما Sema » ؛ وفي عهده وفي عهد بطلميوس الثاني تم إنشاء المدينة وأقيمت معظم المؤسسات الهامة .

كانت الإسكندرية إذن في العصر البطلمي ممتدة من الشرق إلى الغرب على شكل مستطيل في هذا الشريط الضيق الموجود بين بحيرة مريوط من الجنوب والبحر الأبيض المتوسط من الشمال ، وتنقسم إلى شوارع مستقيمة متوازية تتقابل مع الشوارع الممتدة من الشمال إلى الجنوب في زوايا قائمة ، ويتخلف عن تقاطعها مربعات صالحة لإقامة المباني والبيوت عليها ؛ وكانت تمتد على جانبي كل شارع من الشوارع الهامة سلسلة من البوائك والعقود ذات الأعمدة والتأثيل لتزين هذه الشوارع ولحماية المارة من وهج الشمس .

وكان أهم الشوارع - تبعاً لتحقيقات الفلكي باشا - شارعين :
- أحدهما الشارع الكانوبي^(١) ويمتد من شرق المدينة إلى غربها ، وعرضه مائة قدم ، وفي نهايته من الشرق باب الشمس^(٢) ، وفي نهايته من الغرب باب القمر .

- والثاني شارع « السېما »^(٣) ، ويقطع السابق في منتصفه تقريباً ، ويمتد من شمال المدينة إلى جنوبها .

وكانت بقية الشوارع موازية لهذين الشارعين وتحمل أسماء أفراد من الأسرة المالكة ؛ وقد كشف الفلكي باشا في حفائره عن سبعة شوارع طولية كانت

(١) مكانه الآن شارع فؤاد الأولى وامتداده في شارعى سيدى المتولى وإسحاق النديم .

(٢) هو باب رشيد أو باب القاهرة كما كان يسمى في العصور المختلفة .

(٣) مكانه الآن شارع النبي دانيال .

تمتد من الشرق إلى الغرب ، وعن أحد عشر شارعاً عرضياً كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وذكر أن هذه الشوارع جميعاً كانت مرصوفة بالبازلت الأسود أو الأصفر .

وكانت المدينة مقسمة إلى أحياء خمسة ، سميت بالأحرف الهجائية الأولى في اللغة اليونانية : (ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ، إبسيلون) ، وأجمعها أحياء ثلاث : ١ - الحى الملكى فى شرق المدينة ، وكان يحده على وجه التقريب شارع السيام من الغرب ، وحى اليهود من الشرق ، وطريق كانوب من الجنوب ، والطرف الشرقى من الميناء الشرقية ورأس لوكياس (السلسلة) من الشمال ؛ وكانت تقوم فيه القصور الملكية تحيط بها الحدائق الغناء على مرتفعات من الأرض تتيح لها الإشراف على الميناء والبحر .

وفى هذا الحى أيضاً كانت تقوم « دارالحكمة أو الأكاديمية Museum » ، والمكتبة الكبيرة ، والمسرح ؛ وفى ناحيته الغربية بنى معبد « القيصرىون Caesareum ^(١) » ، أمرت ببنائه الملكة كليوباترة السابعة تكريماً لزوجها أنطونيوس ، ولكنه تم بناء بعد فتح الرومان لمصر تكريماً للإمبراطور أغسطس . وعند مدخل هذا المعبد أقيمت مسلتان عرفتا فيما بعد باسم « مسلتا كليوباترة » ، وقد ظلتا قائمتين فى مكانهما - بعد زوال المعبد - حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ^(٢) ، تشرقان على الميناء الشرقية عند محطة الرمل الحالية ، وموقعهما واضح فى كل الخرائط التى رسمت لالاسكندرية حتى عهد الحملة الفرنسية . وفى الجنوب الغربى من هذا الحى أقيم قبر الإسكندر (Sema) فى الشارع الذى حمل اسمه - كما يرجح معظم الباحثين - ، وحول قبر الإسكندر أقام البطالة قبورهم فى المكان المعروف حينذاك بالبانيوم (كوم الدكة الحالى) ؛ وقد ذكر « استرابون » أن هذا النهد من الأرض كان أكثر مواقع المدينة ارتفاعاً وأنه كان يصعد إليه بوساطة سلم حلزونى ، وأن من يعتليه كان يستطيع أن يشرف من قمته على كل أنحاء المدينة .

(١) كان موقع هذا المعبد فى المكان الواقع بين عمارة يحي باشا أمام محطة ترام الرمل الحالية ، والكنيسة المرقسية للأقباط والكنيس الإسرائيلى .

(٢) نقلت إحدى هاتين المسلتين إلى إنجلترا سنة ١٨٧٧ ، ولا تزال قائمة حتى الآن على ضفة نهر التاميس بمدينة لندن ؛ ونقلت الثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٧٩ ، وهى إلى الآن قائمة فى « سترال بارك » بمدينة « نيويورك » .

وإلى الشرق من البانوم كانت توجد دار المحكمة ويلبها الجمنازيوم ، وهو الملعب الكبير الذى كان يطل على طريق كانوب .

٢- وإلى الشرق من هذا الحى الملكى كان يقوم حى « دلتا » وهو حى اليهود ، وبه مقابرهم ، فقد كانوا يكونون فى العصرين اليونانى والرومانى جالية كبيرة لها خطرهما فى الحياتين السياسية والاقتصادية .

٣- وفى الجنوب الشرقى من المدينة - حيث كانت قرية راكوتيس القديمة - كان يقوم الحى الوطنى (١) ، وفيه يسكن الأهليون ؛ وفى هذا الحى كان يقوم معبد السيرايوم ، وهو معبد عظيم أقامه البطالمة على تل مرتفع يصعد ليه بسلم ذى مائة درجة ، وكانت تحيط به الأبهاء والأروقة الفسيحة ، تزينا الأعمدة الضخمة والتماثيل الجميلة ، وقد أنشأه البطالمة فى أوائل عهدهم ليكون مقراً للعبادة الحديدية التى أنشأوها ، وهى عبادة « سيرايس » ، وكانت مزيجاً من العبادتين اليونانية والمصرية القديمة ، وذلك لتحقيق أهدافهم التى كانت ترمى إلى العمل على اختلاط المصريين واليونانيين وخاصة فى الديانة ، ولهذا اختاروا أن يقام هذا المعبد فى الحى الوطنى حيث يسكن الأهليون ؛ وكان يقوم فى هذا المعبد تمثال ضخم للإله « سيرايس » ، كما أنشئت فيه فيما بعد مكتبة صغيرة ؛ وبالقرب من السيرايوم أنشئ معبد أنوبيس « الانوبيون » ، وبجانبه مقبرة للحيوانات المقدسة .

وكان يحيط بالمدينة سور ضخم ذو أبراج وحصون وأبواب كثيرة ، كان أهمها : باب الشمس فى الشرق ، وباب القمر فى الغرب .

ومن الراجح أنه بدئ فى بناء الأسوار فى عهد الإسكندر ثم أتمها البطالمة ، وزاد فيها وفى تحصينها الرومان بعد ذلك ؛ وهذا السور هو الذى كان يحدد المدينة المأهولة ، وكان يبدأ غرباً من نهاية طريق كانوب ، ويمتد محاذياً شاطئ البحر إلى رأس لوكياس شرقاً ، ثم ينحدر جنوباً إلى أن يتلاقى وترعة الإسكندرية ، ثم يسير محاذياً لها إلى أن يتصل بالنقطة التى بدأ منها ، فى شكل مستطيل تقريباً ، وقد كشف الفلكى باشا عن أجزاء من هذه الأسوار القديمة ، ويتبين من دراسة هذه الأجزاء أن عرض أساساتها كان خمسة أمتار ، وأنها بنيت من الأحجار المأخوذة من محاجر المكس .

(١) منطقة كوم الشقافة الحالية ، وما يحيط بها من أحياء وطنية .

أما خارج السور شرقاً وغرباً فكان رمالاً ممتدة غير مأهولة بالسكان تتخللها أشجار النخيل ؛ وإنما كان يوجد في غربى المدينة وخارج الأسوار مقبرة المدينة (فى المنطقة بين الشاطى وكامبو تشيزارى الحالية) .

وإلى الغرب من هذه المنطقة أيضاً (فى حى الإبراهيمية الحالى) عثر على مقبرة بها رفات المتطوعة فى الفرق الأجنبية بالهيش البطلمى ، وإلى الجنوب منها كان يوجد ميدان كبير لىباق الخيل كان يسمى « الهيبودروم » (بجوار نادى سبورتنج الحالى) ؛ ثم تتصل الرمال بعد ذلك إلى أن تصل إلى مدينة كانوب القديمة (أبو قير الحالية تقريباً) التى كانت تقع عند مصب الفرع الكانوبى .

وكانت المدينة تطل على البحر مباشرة ، والمياه تفصل بين شاطئها وبين جزيرة « فاروس » فبنى فى العصر البطلمى رصيف حجري طويل يصل الشاطئ بالجزيرة ، وكان طول الرصيف سبعة « ستاد » ، ولهذا كان يسمى باليونانية « هيبتا ستاد » (١) ، وكان عرضه وقت إنشائه لا يزيد على ٣٠ متراً . وكان إنشاء هذا الرصيف عملاً موفقاً ، فقد خلق للمدينة مينائين بدلاً من ميناء واحدة : الميناء الشرقى ، ويحدها من الغرب « الهيبتا ستاد » ، ومن الشرق رأس لوكياس ، وكانت تسمى الميناء الكبرى أو الميناء القديمة ، وهى التى كانت تستعمل طول العصر البطلمى وجزءاً من العصر الرومانى ؛ والميناء الغربى وتقع إلى الغرب من رصيف « الهيبتا ستاد » ، وكانت أقل استعمالاً من الميناء الشرقى ، ولم تصبح لها المكانة الأولى إلا فى أواخر العصر الرومانى عند ما اتسع مدخل الميناء الشرقى ، وضاق تبعاً لذلك مدخل الميناء الغربى ، ولهذا أصبحت تسمى بالميناء الجديدة ؛ وكان يوجد فى داخل هذه الميناء الغربى ميناء أخرى صغيرة ممتلئة من جميع الجهات ، وتسمى « كيبوتوس » ، أى الصندوق الممتلئ ، وكانت تصلها ببحيرة مريوط قناة ملاحية صغيرة . وكان يوجد فى الجنوب الشرقى من الميناء الشرقى ، وبالقرب من الشاطئ ومن رأس لوكياس ، جزيرة صغيرة ، هى جزيرة « انتيرودوس » وقد انخفضت

(١) كانت نهاية هذا الرصيف جنوباً تقع على بعد مائة متر تقريباً إلى الشمال الشرقى من كوم الناصورة الحالى ، أما نهايته من الشمال فكانت فى الجنوب من جزيرة فاروس حيث يقع شارع أبو وردة الحالى ، وبالقرب من مصلحة الموانئ والمنائر .

هذه الجزيرة في العصور الوسطى . وأصبحت تنظيها المياه ؛ وكان لهذه الجزيرة أهمية خاصة ، فقد أقيم عليها قصر من القصور الملكية يطل على ميناء ملكية كانت خاصة لاستعمال الأسرة المالكة وحدها .

وعلى رأس لوكياس (السلسلة حالياً) كانت تقوم بقية القصور الملكية ، وما يستوجب الإشارة أن هذه الرأس كانت في العصور القديمة غيرها اليوم ، فقد كانت أعرض بكثير (١) ، ثم انتقصت العوامل المختلفة من أطرافها — وخاصة الزلازل المتتابة — ، غير أن إنشاء رصيف « الهيبتا ستاد » كان له أكبر الأثر فيما أصاب رأس لوكياس والميناء الشرقية من تغيير ، فقد عملت الأمواج بعد إنشاء هذا الرصيف على إرساب الطمي حوله ، وعلى النحر أو الأكل في الجانب الآخر وهو رأس لوكياس ، ونتيجة لهذا التآكل اتسع مدخل الميناء الشرقية مع مرور الزمن اتساعاً كبيراً ، فهو اليوم غيره وقت إنشاء المدينة .

أما جزيرة « فاروس » ، فكانت تعتبر بموقعها الممتاز الخطط الأمامي للدفاع عن المدينة ، وكانت نهايتها الشرقية تشرف على مدخل الميناء الشرقية ، وعلى هذه النهاية أقيمت المنارة القديمة العظيمة ، وسميت باسم الجزيرة نفسها « فاروس » ثم حرفت بعد ذلك إلى « فار » أو « فنار » .

وكانت هذه المنارة تتكون من أدوار ثلاثة ، الأول مربع ، والثاني مشمن ، والثالث مستدير ، وارتفاعها جميعاً ١٢٠ متراً ، وكان يحيط بالدور الثالث ثمانية أعمدة تحمل قبة ضخمة ، في داخلها مصباح كبير يرسل أشعته ليلاً ليضيء السبيل للذين الوافدة على الميناء ، وكان يعلو هذه القبة تمثال ضخم من البرونز يمثل إله البحر « بوسيدون » ، ويقال إن ارتفاعه كان نحو سبعة أمتار (٢) .

(١) كان عرضها قديماً أكثر من كيلومتر ، وهي الآن لا تزيد على ٣٠ متراً .

(٢) كانت منارة الإسكندرية تعد في القديم إحدى عجائب الدنيا ، لهذا كانت أبرز ما يلفت أنظار زائري المدينة ، وقد كتب عنها كثيرون من المؤرخين والجغرافيين والرحالة ، انظر مثلاً ما ورد عنها في ابن الفقيه (كتاب البلدان ص ٧٢) ؛ وابن رسته (الأعلاق النفيسة ، ص ٧٨ ، ١١٨) ؛ وابن حوقل (كتاب المسالك والممالك ، ص ٩٩) ؛ وابن خرداذبة (المسالك والممالك ، ص ١١٥) ، والإدريسي ، (نزهة المشتاق ، ص ١٣٩ - ١٤٠) ؛ والمقدسي (أحسن التقاسيم ، ص ٢١١) ، وهذه جميعاً كتب مطبوعة يمكن الرجوع إليها ؛ وفي رحلة ابن رشيد المعنونة (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة ، ج ٣ ، ص ٢٠) وصف طيب للمنارة ، والرحلة لا تزال مخطوطة ونسخها محفوظة في مكتبة الأسكوريال ، وتوجد من بعض أجزائها صور شمسية في مكتبة البلدية بالإسكندرية ؛ ولعل أدق وصف وصلنا للمنارة هو ما كتبه =

وكانت بحيرة مربوط تحدد المدينة من الجنوب ، وهي بحيرة داخلية عذبة المياه ، وكانت تصلها بالفرع الكانوبي ترعة « شيديا » القائمة التي كانت تصب في البحر وفي ميناء « كيبوتوس » انداخلية ؛ وكان يتمرع منها فرع يسير على وجه التقريب في مجرى ترعة الفرخة الحالية ، ويخترق المدينة ليصب في الميناء الشرقية ؛ ومصورات المدينة في انحصور الوسطى تبين فروعاً أخرى صغيرة لهذه الترة كانت تتخلل المدينة لإيصال المياه الحلو إلى مختلف أنحائها ، وتشير المراجع إلى أن هذه الفروع كانت قنوات تحتية تحمل الماء إلى صهاريج البيوت ، وذكر علماء الحملة الفرنسية أنه كان بالمدينة وقت وجودهم بها حوالي ٣٠٠ صهريج صالحة للاستعمال ، وقد كشف الفلكي باشا أثناء قيامه بحفائره في سنة ١٨٧٢ عن ٧٠٠ صهريج منها .

=أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى المالكي الأندلسي الذي زار الإسكندرية في القرن السادس الهجري وذلك في كتابه (ألف باء ، المطبعة الوهية ، ١٢٨٧ هـ) ؛ وقد كتب المنفور له الأمير عمر طوسون بحثاً بالفرنسية معتمداً على هذا الوصف ، وعنوانه :

— Toussoun (Omar) : Description du Phare d'Alexandrie d'après un Auteur Arabe du XII. siècle. (Bull. S.R. d'Arch. d'Alex. No. 30, Alexandrie. 1935).

وانظر أيضاً :

— Combe (Et.) : De la Colonne Pompée au Phare d'Alexandrie, dans : (Bull. S.R. d'Arch. d'Alexandrie No. 34. Alexandrie. 1940).

فى العصر الرومانى

فى سنة ٣٠ ق . م احتل أوكتافىوس أوغسطس مدينه الإسكندريه ، ومنذ تلك السنه فقدت مصر استقلالها ، وأصبحت ولاية تابعة للإمبراطوريه الرومانيه ؛ ومنذ تلك السنه أيضاً اتضعت مكانه الإسكندريه ؛ حقيقه لقد ظلت الإسكندريه عاصمه لمصر ، ولكن فرق كبير بين أن تكون عاصمه لدوله مستقله وبين أن تكون عاصمه لولاية تابعة لدوله أخرى .

ومع هذا فقد ظلت المدينه تحتفظ بمكانتها ، واضطرد نموها ، وأقيمت فيها فى هذا العصر منشآت كثيره ج يده ، ولكنها أصيبت خلال هذا العصر بمجن كثيره كان لها أثر كبير فى تخريب بعض مبانيها ، وتغيير بعض معالمها ، وخاصة فى أواخر هذا العصر الرومانى عند ما انتشرت المسيحيه فى مصر ، وفى عاصمتها الإسكندريه بوجه خاص .

والذى نلاحظه أن شكل المدينه العام لم يتغير كثيراً فى هذا العصر ، لهذا سوف لا نشير هنا إلا إلى المعالم الجديده التى أقيمت فى العصر الرومانى ، وأهمها :

١ - معبد القيصرىون :

وهو بناء مخضرم لأنه شهد العصرين ، فقد بدأت بناءه الملكه كليوباتره السابعة تكريماً لزوجها أنطونيوس ، ثم اكمل بناؤه بعد فتح الرومان لمصر تكريماً للإمبراطور أغسطس ؛ وقد بنى هذا المعبد على مساحه كبيره أمام محطه الرمل الحاليه فى المنطقه الواقعه بين عمارة يحيى باشا وبين الكنيسه المرقسيه للأقباط والكنيس اليهودى ؛ وقد وصفه المؤرخ اليهودى « فيلون Philo » فى منتصف القرن الثانى بقوله : « لا يوجد فى العالم بأسره مثل هذا الحرم المقدس . . . وتبدو معالمه واضحه جليه عند مدخل الميناء ، ولا يخطئه الإنسان لعظم حجمه » . وأمام هذا المعبد أقامت كليوباتره المسلمتين الشهيرتين اللتين أحضرتهما من معبد عين شمس ؛ وفى سنة ٣٥٤ ، وفى عهد الإمبراطور البيزنطى « قنسطنطيوس »

أحبال المسيحيون هذا المعبد كنيسة ، وظل اليعاقبة والملكانيون يتنازعون على ملكيته إلى أن أصابه الحريق في سنة ٩١٢ م .

ولهذا المعبد في عهده الوثني والمسيحي ، وللمسلتين المقامتين أمامه أهمية خاصة ، فقد كانت جميعاً من معالم المدينة البارزة التي ظهرت واضحة في أوصاف المؤرخين والرحالة ، وفي مصوراتهم التي رسموها للمدينة في العصور الوسطى ؛ ومن حسن الحظ أن ظلت المسلتان باقيتين في مكانهما القديم إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فكانتا من المعالم الهامة التي أعانت الباحثين على دراسة صبوغرافية المدينة وتحديد مواقع شوارعها ومبانيها ومنشأتها القديمة .

٢ - مدينة نيكوبوليس :

بناها الإمبراطور أغسطس شرق المدينة على شاطئ البحر في المنطقة الواقعة بين شاطئ مصطفى باشا وجليمونوبولو ، سماها « نيكوبوليس » أي مدينة النصر وذلك تخليداً لذكرى انتصاره على جيوش كليوباتره وأنطونيوس ، ونيكوبوليس تعتبر في الحقيقة ضاحية عسكرية أكثر منها مدينة ، فقد كانت مقراً لإقامة الجيش الروماني فحسب .

٣ - عمود السواري :

حوالي سنة ٢٩٧ م قامت في مصر ثورة شاملة ضد الحكم الروماني ، وكانت هذه الثورة أخطر ما تكون في مدينة الإسكندرية ، فأتى إليها الإمبراطور دقلديانوس بنفسه ، وظل يحاصرها ثمانية أشهر طوالاً إلى أن خضعت وسلمت وقد حاول دقلديانوس بعد دخوله الإسكندرية أن يسترضي الأهليين ويقربهم إليه فأمر بتوزيع العطايا والخبز عليهم ، وبعد عودته إلى روما أراد « بوسستموس » والى مصر الجديد أن يقيم نصباً تذكاريّاً لزيارة الإمبراطور المدينة ، ليكون رمزاً لاعترافها بجميله عليها وعلى سكانها ، فأقام هذا العمود الضخم المرتفع الفارع في ارتفاعه داخل معبد السيرايوم ، ونقش على قاعدته من الناحية الغربية هذه الجملة : « تذكار من مدينة الإسكندرية ، أقامه الحاكم « بوسستموس » للإمبراطور دقلديانوس الذي لا يقهر ، اعترافاً بفضلها عليها » ؛ ويقال إنه أقام

فوق هذا العمود تمثالاً كبيراً لهذا الإمبراطور ، وأن هذا التمثال سقط مع الزمن .
والعمود منحوت من قطعة واحدة من حجر الجرانيت الأسوانى ، ويبلغ ارتفاعه وحده ٢٠,٧٥ متراً ، كما يبلغ ارتفاعه إذا أضيفت إليه القاعدة والتاج ٢٦,٨٥ متراً ، وهو فى أسفله أعرض منه فى أعلاه ، فإن قطره من أسفل ٢,٧٠ متراً ، ومن أعلى ٢,٣٠ متراً .

وقد سماه الأوربيون - فى كتبهم - خطأ - باسم « عمود بومبى » ، كما سماه المصريون فى العصر العربى باسم « عمود السوارى » .

وكان هذا العمود لضخامته وارتفاعه موضع إعجاب كل من زاروا الإسكندرية وكتبوا عنها فى العصور القديمة والوسطى . وبقاء هذا العمود فى مكانه الذى أقيم عليه أول ما أقيم أفاد الباحثين كثيراً عند إعادة تخطيط المدينة ، شأنه فى ذلك شأن كثير من معالم المدينة البارزة التى ظلت كما هى رغم تعاقب السنين - إلى وقت قريب ، كمسلى كليوباترة ، والسور ، وكوم الديماس (كوم الدكة) ، وكوم الناصورة ، والمنارة - إلخ .

٤ - الكنائس المسيحية :

فى العصر الرومانى المتأخر ، وأقصد فى العصر البيزنطى - انتشرت المسيحية فى مصر - وخاصة فى العاصمة الإسكندرية - ، ومنذ ذلك الحين أخذ المسيحيون يحيلون بعض المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس ، أو ينشئون الكنائس الجديدة ، لتكون مقراً لعبادتهم ؛ وقد أصبحت هذه الكنائس منذ ذلك الحين من المعالم الجديدة التى تميز المدينة ، ونجدها ظاهرة إلى جانب المعالم القديمة فى بعض المصورات التى رسمها الرحالة الذين زاروا الإسكندرية فى العصور الوسطى ، وأهم هذه الكنائس هى :

(أ) كنيسة القديس مرقس ^(١) البشير ، وكانت مقامة على شاطئ الميناء الشرقية بالقرب من رأس لوكياس (السلسلة)

(ب) كنيسة القديس أنثانيوس التى أنشئت حوالى سنة ٣٧٠ م ، ويظن

(١) فى سنة ٨٢٨م سرق اثنان من البنادقة جثمان القديس مرقس ، ونقلوه إلى مدينة البندقية ، انظر شارل ديل : البندقية ، ص ٢١ (الترجمة العربية للدكتور عزت عبد الكريم ، والأستاذ توفيق إسكندر) .

أنها كانت تقوم في المكان الذي بنى عليه جامع العطارين فيما بعد ، فإن علماء الحملة الفرنسية ذكروا هذا الجامع باسم « جامع كنيسة القديس أثناسيوس » .

(ج) كنيسة القديس ميخائيل ، وقد اختلف في تحديد موضعها ، فبعض يقول إنها بنيت على آثار معبد قديم قريباً من مبنى البلدية الحاضر ، وبعض آخر يقول إنها بنيت مكان معبد القيصريون الذي حوله القديس أثناسيوس إلى كنيسة مسيحية في سنة ٣٥٤ م في عهد الإمبراطور قسطنطينوس (١) .

(د) كنيسة يوحنا المعمدان ، وقد أقيمت في سنة ٣٩١ م على أنقاض معبد السيرايوم بعد أن هدم المسيحيون معظم مبانيه ، ويقال إن هذه الكنيسة ظلت قائمة إلى القرن العاشر الميلادي حيث خربت .

(هـ) كنيسة العذراء مريم ، وقد بناها بالقرب من الميناء الغربية البطريق ثيونس (٢٨٢ — ٣٠٠) ، وقد اعتبرت منذ بنائها الكنيسة الكتدرائية ، وبنيت إلى جانبها دار البطارقة القديمة ، وظلت على هذا الوضع مدة طويلة إلى أن تهدمت وبني مكانها في العصر العربي مسجد كبير عرف باسم « الجامع الغربي » لقربه من الميناء الغربية ، ثم عرف فيما بعد بجامع الألف عمود لكثرة ما به من أعمدة (٢) .

ولا يفوتنا أن نشير أخيراً إلى أثر المسيحية في المنطقة المجاورة لمدينة الإسكندرية فقد نشأت مع قيام المسيحية في مصر حركة الرهينة ، وبني الرهبان في قلب الصحراء الأديرة الكثيرة يقيمون فيها للتبتل والعبادة ؛ وقد أقيم في المناطق المجاورة للإسكندرية عمارد من الكنائس والأديرة الهامة ، منها الكنيسة العظيمة التي بناها الإمبراطور أركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨) على قبر أبي مينا في الصحراء الغربية على بعد عشرة كيلو مترات تقريباً من قرية مريوط الحالية ؛ ومنها معبد

(١) انظر : الدكتور عزيز سوريال عطية ، « الإسكندرية في العصر المسيحي » فصل من كتاب الإسكندرية الذي أخرجه الغرفة التجارية للإسكندرية في سنة ١٩٤٩ .

(٢) أغلب الظن أن هذه العمدة الكثيرة كان بعضها من أنقاض الكنيسة المهتمة ، وأن أكثرها حمل إليه من بقايا معبد السيرايوم القريب ، ويقوم مكان هذا المسجد الآن دير الآباء الفرنسكانين وهناك على قبر الدكتور شليس داخل المستشفى الأميري الحالي عمودان من الجرانيت الأخضر يقال إنهما نقلتا إليه من هذا المسجد بعد أن خرب .

أبى صير الذى أحاله المسيحيون فى العصر البيزنطى إلى دير يسكنه الرهبان المسيحيون ؛ ومنها الأديرة الكثيرة التى بنيت فى وادى النطرون ^(١) ، وقد خرب معظمها مع مرور الزمن ، ولا زالت أطلالها تدل على مواقعها ، وبقى منها قائماً ومستعملاً حتى الآن أديرة أربعة ، وهى : دير البراموس ، ودير أنبا بشوى ، ودير السريان ، ودير أبى مقار ، وكلها من منشآت القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد .

(١) انظر : عمر طوسون (أديرة وادى النطرون) ؛ وعلى مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ، ص ٤٨ - ٥٥) : وكتاب (الرهبة القبطية) الذى أصدرته جمعية مارينا العجايب بالإسكندرية ، سنة ١٩٤٨ ؛ وهو مجموعة من الفصول كتبها جماعة من الباحثين الأقباط ، وأهم ما يعيننا منها هنا الفصل الذى كتبه الدكتور عزيز سوريال عطية عن «نشأة الرهبة المسيحية فى مصر» ، والفصل الذى كتبه مورييس مكرم عن «الأديرة الغربية» .

في العصر الإسلامي الأول

تمهيد :

بذلت جهود علمية كثيرة في دراسة تاريخ الإسكندرية وآثارها وطبوغرافيتها في العصور القديمة ، ثم وقفت هذه الجهود عند العصر الإسلامي الوسيط ، بل وتخطته إلى العصور الحديثة ، وإذا تكرم واحد من الباحثين وأشار إلى هذا العصر فإنه يغمطه حقّه ويتهمة ظلماً بما لا يتفق والحقيقة في شيء ، فهذا الأستاذ فؤاد فرج المهندس مثلاً أخرج منذ سنوات الكتاب العربي الوحيد عن مدينة الإسكندرية في ١١٠ صفحات من القطع الكبير ، خص العصر الإسلامي منها بثلاث صفحات فقط ، لم يشر فيها إلا إلى الفتح العربي على يد عمرو بن العاص ، أما العصر نفسه — وهو تسعة قرون كاملة من تاريخ المدينة — فإنه لم يجد فيه ما يستحق الذكر ، وإنما وصفه كله بقوله : « إن المدينة قد اضمحلت في هذا العصر وسارت في طريق الخراب بخطوات كبيرة » ؛ وقد يلتمس العذر للأستاذ فرج لأنه مهندس وليس مؤرخاً ، ولأن تاريخ هذا العصر لم يكتب بعد .

وقد شغلت بهذا الموضوع وهو « تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي » وقتاً ما ، وكنت أتساءل وأنا أقلب الكتب الكبيرة : ألم يكتب العرب تاريخاً خاصاً لهذا الثغر الهام في العصر الإسلامي ؟ وهم لم يتركوا مدينة من مدنها الكبرى أو المتوسطة إلا وأرخوها لها ، وبين أيدينا الموسوعات والكتب الكبيرة عن تاريخ بغداد ودمشق وحلب والموصل وبخارى وأصفهان ومكة والمدينة والقاهرة والقيوم ... إلخ . وبعضها مطبوع وبعضها لا يزال مخطوطاً .

وظللت أبحث حتى وقفت إلى نصوص تشير إلى كتاب كبير في جزأين ألفه في القرن السابع الهجري (١٣ م) عن تاريخ الإسكندرية واحد من أبنائها وعلمائها وهو : منصور بن سُلَيْم (١) ؛ ثم دلتني البحث مرة أخرى إلى وجود

(١) هو أبو المظفر وجيه الدين منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمداني الإسكندري ، محتسب الإسكندرية ، ولد في ثامن صفر سنة ٦٠٧ ، وأخذ عن الكثيرين ، ورحل إلى الشام والعراق ، واعتنى بالحديث والفقه والرجال والتاريخ ؛ وجمع لنفسه معجماً ، وكتب تاريخاً كبيراً لمدينة الإسكندرية ؛ ذكر السبكي والذهبي أنه كان في مجلدين ، وذكر السخاوي أنه كان في أربع مجلدات =

نسخة مخطوطة منه في مكتبة أيا صوفيا باستانبول^(١) ، وأرسلت في الحال إلى المستشرق الألماني « ريتير Ritter » استوضحه حقيقة هذه المخطوطة توطئة لتصويرها ، وكم كان ألمي حين كتب إلى يقول إن الكتاب غير موجود وإن الكتاب الموجود مكانه والذي يحمل رقمه هو « قصة الإسكندر الرومي وسياحاته ودخوله في الظلمة باحثاً عن ماء الحياة » .

ولكنني لا زلت أعتقد أن الكتاب كان موجوداً في المكتبة إلى وقت قريب ، أى إلى الوقت الذي طبعت فيه فهرس الكتب العربية الموجودة في مكتبات استانبول ، ثم امتدت إليه الأيدي ، ولا زال الأمل يداعبني أن نوفق في القريب للعثور عليه ، وعند ذلك نحصل على وثيقة هامة جداً توضح لنا تاريخ الإسكندرية ومعالمها في القرون السبعة الهجرية الأولى ، لأن الكتاب كتبه واحد من سكانها وعلمائها ، وقد تولى الحسبة بها وقتاً ما .

ومع هذا فهناك كتاب آخر ذو فائدة كبيرة للباحثين في تاريخ الإسكندرية في العصر الإسلامي ، غير أنه أقل أهمية من سابقه لأنه لم يكتب للتأريخ للإسكندرية ، وإنما للتأريخ لحادثة خاصة ، وهى غزوة القبارصة الصليبية للمدينة في أواخر القرن الثامن الهجرى (٧٦٧ = ١٣٦٥ م) ، ومؤلف هذا الكتاب هو محمد بن القاسم النويرى الإسكندرى^(٢) ، إلا أن الطريقة —

= وتوفى في الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٧٣ ؛ انظر : (الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة دار الكتب المصرية ، وفيات سنة ٦٧٣ ، ص ٣٩٦) ؛ و(الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج ٤ ، ص ٢٤٩) ؛ و(ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤١) ؛ و(السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ص ١٥٧) ؛ و(ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٤٧) ؛ و(المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦١٩) ؛ و(السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢) ؛ و(حاجى خليفة ، كشف الظنون) .

(١) انظر : (فهرس المخطوطات العربية بمكتبة أيا صوفيا ، استانبول ، ١٣٠٤ هـ) .
حيث ذكر به أن الكتاب من جزأين ويوجد تحت رقمى ٣٠٠٣ ، ٣٠٠٤ ، وانظر أيضاً :

Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur, Supp. vol. I. P.p. 573-574.

(٢) انظر ترجمته في : (ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ١٤٢) ؛ والكتاب عنوانه : « الإمام بالأعلام بما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية في سنة سبع وستين وسبعائة ، وعودها إلى حالتها المرضية » ، وهو لا يزال مخطوطاً ؛ وكان المعروف إلى وقت قريب أنه لا يوجد منه إلا نسختان : نسخة تتضمن الجزء الأول منه في مكتبة برلين رقم ٩٨١٥ ، ونسخة تتضمن الجزء الثانى في دار الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ ، غير أنني عثرت أخيراً على ما يفيد وجود =

الاستطارية التي عرف بها المؤلفون العرب قد أمدتنا في هذا الكتاب بمعلومات هامة جداً عن تاريخ المدينة ومعالمها وطبوغرافيتها في العصر الإسلامي ، وفي القرن الثامن الهجري بوجه خاص .

فإذا أضفنا إلى معلومات النويري بعض الحقائق التي وردت فيما بقي لنا من كتب « فضائل الإسكندرية »^(١) وكتب التراجم والرحالة والجغرافيين ، وما نخشى بين السطور في كتب التاريخ الإسلامي السياسي المطولة لأمكننا أن ننشئ للمدينة في عصرها الإسلامي تاريخاً مطولاً مفصلاً يدل في وضوح كيف كانت المدينة مزدهرة الازدهار كله — عمرانياً وعلمياً واقتصادياً — في هذا العصر الإسلامي الممتري عليه .

• • •

= نسختين آخرين للكتاب ، إحداهما في خزافة « بانكي فور » بالهند ، تحت رقم ٢٣٣٥ ، وهي نسخة قيمة هامة لأنها كتبت في القرن الثامن الهجري ، فهي أقدم النسخ المعروفة ، وتشتمل على الجزء الأول فقط ، والثانية في المتحف البريطاني رقم ٦٠٦ ، وإنما تحت عنوان مخالف وهو : « مرآة العجائب في وقاية الإسكندرية » ؛ انظر : (السيد هاشم الندوى ، تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، حيدرآباد الدكن ١٣٥٠) ؛ و (فهرس دار الكتب المصرية ، ج ٥ ، ص ٣٨ ؛ ج ٨ ، ص ٢٤) ؛ وانظر أيضاً :

Et. Combe = Le Texte de Nuwairi sur l'Attaque d'Alexandrie par Pierre I de Lusignan. dans (Bulletin of the Faculty of Arts, Farouk I University. v. III, 1946.)

— و(اثنين كومب ، بعض منتخبات من كتاب الإمام للنويري الإسكندري ، نفس العدد من المجلة المذكورة) ؛ والمقول أن الأستاذ كومب يعمل منذ سنوات طويلة لإعداد هذا الكتاب للنشر .

(١) كتبت عن فضائل الإسكندرية رسائل كثيرة ، ذكر منها اثنتين (الأستاذ حسن عبد الوهاب ، الإسكندرية في العصر الإسلامي ، مجلة الكتاب ، عدد يناير ١٩٤٧) ، وذلك نقلاً عن السخاوي ، وهما : فضائل الإسكندرية لأبي الفضائل (؟) ، وفضائل الإسكندرية لأبي علي الحسن بن عمر بن الحسن الصباغ ، وتوجد من الرسالة الثانية نسخة مخطوطة رقم ١٦٣ في المكتبة الظاهرية بدمشق ؛ وتوجد كذلك في مكتبة الأزهر مخطوطة أخرى صغيرة لجلال الدين السيوطي تحت رقم ١٣٧٤ ، وعنوانها « رسالة في فضل ثغر الإسكندرية » ، كما أنني عثرت أخيراً في : (السخاوي الضوء اللامع ، ج ٣ ص ١٨٤) على نص يشير إلى رسالة أخرى عنوانها « فضائل الإسكندرية » ومؤلفها هو خلف بن علي بن محمد بن أحمد بن داود بن عيسى المغربي التروجي السكندري المتوفى سنة ٨٤٤ .

تم لعمر بن العاص فتح مصر يوم أن وقع الهدنة بينه وبين « قيروس Cyrus » في ديسمبر سنة ٦٤١ (المحرم ٢١ هـ) ، ثم دخل جيشه الإسكندرية بعد أحاء عشر شهراً - وهى مائة الهدنة المتفق عليها - ، وهذا هو الفتح الأول للإسكندرية (١) ، وقد تم صلحاً لا عنوة ؛ غير أن الروم لم يلبثوا أن استشعروا ضعف المدينة بعد عزل عمرو عن ولاية مصر وتولية عبد الله بن سعد ، فعادوا إليها في أواخر سنة ٦٤٥ (أوائل سنة ٢٥ هـ)

ونذب عمرو لقتالهم ، فهزمهم خارج المدينة ، ثم تتبعهم إلى أسوارها ، ويقال إنه عندما رأى الأسوار تقوم سداً مانعاً بينه وبين المدينة ندم أن لم يهاجم على هدمها عند دخوله المدينة في المرة الأولى ، وحلف لئن أظفره الله بالمدينة ليهدم أسوارها (٢) ؛ ثم هاجم هذه الأسوار بمجانيقه من ناحيتها الشرقية إلى أن سلمت له ، ومن هنا ترددت القالة فى بعض الكتب بأن عمرراً هدم جميع أسوار الإسكندرية بعد دخوله إليها ، وهى فى الحقيقة قالة ظالمة ، والراجع أن بعض أجزاء السور من جهتيه الشرقية والجنوبية قد هدمت أثناء الحصار والقتال بين العرب والروم إبان هذا الفتح الثانى للمدينة .

غير أن هذه الأسوار أعيد بناؤها فى العصر العربى ، وليس من المعروف على وجه التحديد متى أعيد بناؤها ؛ وإن كانت بعض المراجع تشير إلى أنها بنيت ثانية فى عصر أحمد بن طولون (فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى = ٩ م) . ولم تكن الإسكندرية وقت أن دخلها العرب فى ازدهارها القديم ، بل لقد كانت عوادى الزمن قد أتت على بعض معالمها ، كما كانت الحوادث السياسية قد أتت على بعض آخر ، فإن النزاع بين الرومان والبطالمة ، ثم النزاع بين الروم الوثنيين والمصريين المسيحيين ، ثم النزاع بين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين ، كل هذا كان له أثره الواضح فى تخريب الكثير من معالم المدينة الهامة التى كانت تميزها وتزينها فى العصر اليونانى ؛ فالمدينة وقت دخول العرب كانت قد فقدت مكتبها الكبرى ودار حكمتها ؛ والقصور الملكية لم يكن لها بهاؤها القديم وعظمتها السالفة (٣) ؛ ومعبد السيرايوم والقيصر يوم كانت قد نالت منهما ألبى

(١) بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢٨٩ من الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد .

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٢ - ٤١٣ .

(٣) بتلر، المرجع السابق، ص ٣٤٨ وما بعدها .

التخريب إبان النزاع الدامي بين المسيحية والوثنية ، وإن كانت قد أقيمت على أجزاء منهما كنيستان كبيرتان .

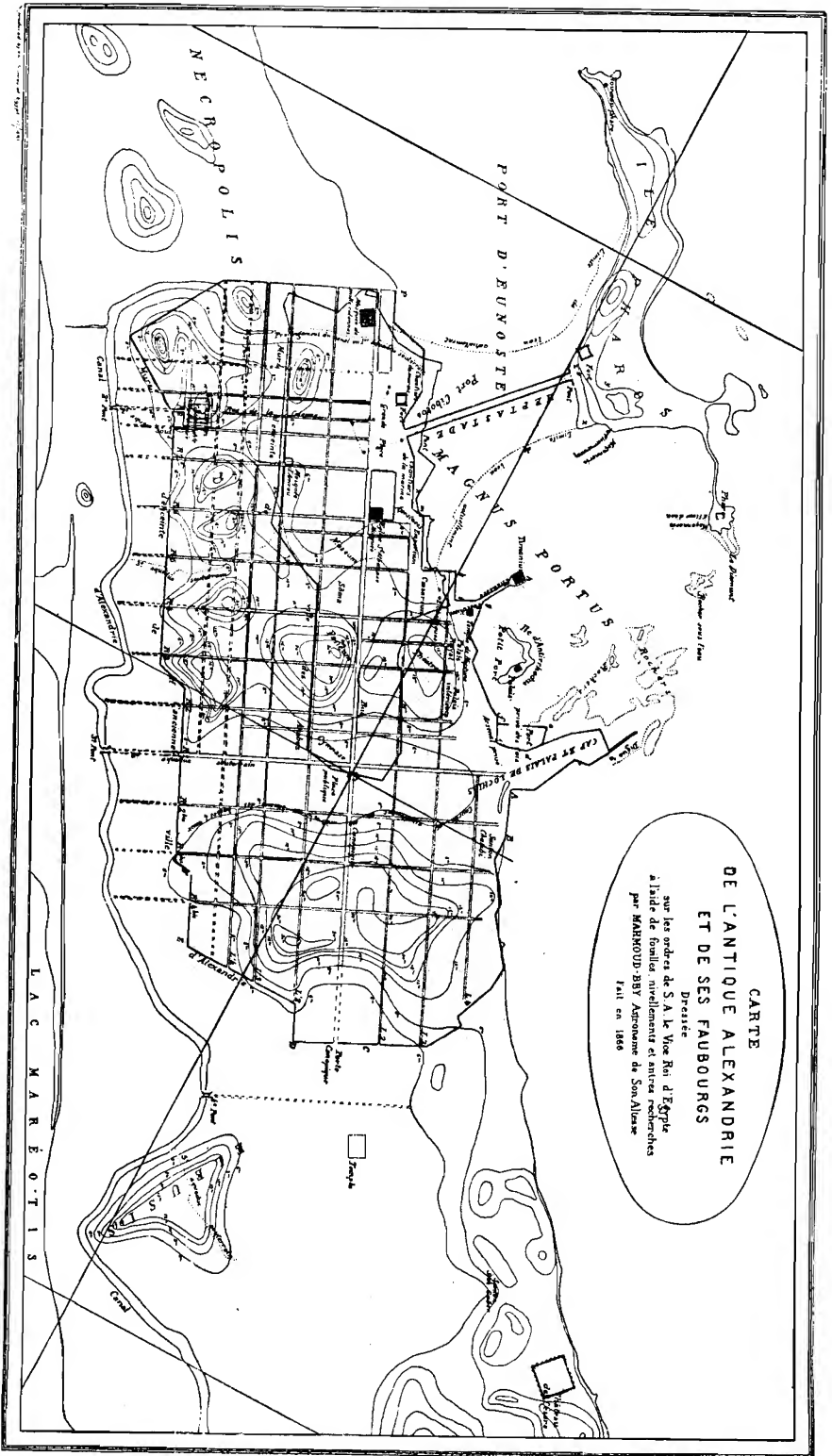
ومع هذا كله فقد بهرت المدينة أعين العرب عند رؤيتها ورؤية مبانيها ، فوصفوها وصف المعجب المشدوه ، وأشاروا أكثر ما أشاروا إلى معالمها البارزة ومبانيها المميزة : كالمئارة ، وعمود السوارى ، وكنيسة القيصريون ، ومسلات كليوباترة ، وقصور المدينة ، وحماماتها ، وصهاريجها ، وشوارعها المكسوة بالمرمر والرخام وكثرة ما بها من عمد ، وأخيراً أسوارها وحصونها وأبراجها ^(١) .

وقد انكشفت المدينة في أوائل العصر العربي عما كانت عليه في العصور القديمة ، فلما أعيد بناء السور روى أن يضم إليه المنطقة الآهلة بالسكان فقط ، وهى التى تحتاج إلى الدفاع عنها ؛ وترك خارجه منطقتان كبيرتان فى شرقى المدينة وجنوبها ، أما المنطقة الشرقية فكانت تقوم عليها مقابر اليونان والرومان ، ولا حاجة لأن تضمهما الأسوار إلى المدينة ، وأما المنطقة الجنوبية فكانت تضم بعض المزارع وبقيّة من أطلال معبد السيرايوم وأطلال ما كان يحيط به من مباني وبيوت يشرف عليها جميعاً عمود السوارى ، ولم يكن هناك داع لصرف الأموال الطائلة لتوسيع محيط السور عند إعادة بنائه ليضم كل هذه الأطلال .

ويتضح الفرق بين مساحتى المدينة قبل الفتح العربى وبعده فى الخريطة التى رسمها الفلكى باشا لتخطيط أسوار المدينة فى العصرين ، وقد بنيت للأسوار الجديدة أبواب تقابل الأبواب القديمة ، وإن كانت قد سميت بأسماء جديدة ، فالباب الذى بنى فى الشرق مقابل باب الشمس سُمى باب رشيد أو باب القاهرة لأنه كان يؤدى إلى طريق رشيد ومنها إلى القاهرة ، والباب الذى بنى فى الغرب مقابل باب القمر سُمى باب القرافة لأنه كان يؤدى إلى جبانة هناك ، وكان لا يفتح إلا يوم الجمعة ، ثم بنى فى الجنوب باب سُمى « باب سدره » ^(٢) فقد

(١) انظر الفصل القيم الذى كتبه بتلر فى كتابه السابق بعنوان « وصف الإسكندرية عند الفتح » ص ٣١٩ - ٣٤٧ ، وما به من مراجع ؛ والمقريزى (الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٢ - ٢٧٣) .

(٢) كان يطلق على هذا الباب فى العصرين الأيوبي والمملوكي : « باب النهار » ، فقد كان بهار الهند والشرق الواصل إلى القاهرة عبر البحر الأحمر يحمل منها فى سفن تسير فى النيل ثم فى خليج الإسكندرية حيث تفرغه خارج الإسكندرية عند هذا الباب ، وفى الأوقات التى كانت تتعطل فيها الملاحة فى الخليج كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجبال تأتى إلى الإسكندرية عبر =



خريطة الإسكندرية

كما رسمها محمود الفلكي باشا المقارنة بين حدود المدينة ومائها في العصور القديمة (وقد رسمت باللون الأحمر) وحدود المدينة ومائها في العصور الحديثة (وقد رسمت باللون الأسود)

كانت تقوم إلى جانب شجرة عاتية من أشجار السدر ، (أو باب العامود لإشرافه على عامود السوارى) ، أما باب البحر في شمال المدينة فقد بقي كما هو يشرف على الميناء الشرقية .

هذا أهم تغيير أصاب المدينة في العصر الإسلامي ، يضاف إليه ما استحدث فيها من مساجد ، تبعاً لوجود الحامية العربية بها ، وازدياد عددها مع مرور الزمن ، وتبعاً لانتشار الدين الإسلامي بين أهلها (١) ، وقد أنشئ بعض هذه المساجد إنشاءً ، وأقيم البعض الآخر على أطلال المعابد أو الكنائس القديمة ، وتشير مراجع العصر الإسلامي الأول إلى ستة من هذه المساجد ، ولكنها لا تحدد مواقعها تحديداً قاطعاً ، وهي :

١ — مسجد سليمان عند القيسارية (٢)

٢ — مسجد الخضر

٣ — مسجد ذى القرنين (ولعله بنى بالقرب من قبر الإسكندر ، ولهذا سمي

بهذا الاسم)

٤ — مسجد عمرو بن العاص ، وتنص المراجع على أنه بنى في وسط المدينة كان يسمى أيضاً « مسجد الرحمة » لأنه بنى في المكان الذي رفع فيه عمرو السيف عن أهل المدينة حين دخلها عنوة في فتحه الثاني .

٥ — مسجد موسى ، وقد بنى بالقرب من المنارة .

٦ — مسجد المنارة ، وقد بنى داخل المنارة نفسها ليكون مصلى للجند

المرابطين فيها .

= الطريق البرى وتدخلها من باب البهار لا من باب رشيد . انظر : (الدكتور جمال الدين الشيال ، الإسكندرية في العصور الأيوبي والملوكي) فصل من كتاب الإسكندرية الذى أصدرته غرفة الإسكندرية التجارية في سنة ١٩٤٩ ، ص ٩٦ — ١٠٣ ؛

— Et. Combe : Les Levés de Gravier d'Ortières a Alexandrie (1686). dans : (Bulletin of the Faculty of Arts, Farouk 1st University, vol. I, 1943. P.p. 52-67.

(١) انظر : مقال الدكتور محمد عبد الهادى شعيره « الإسكندرية من العصر العربى إلى نهاية العصر الفاطمى » ، كتاب الغرفة عن الإسكندرية ، ١٩٤٩ ، ص ٨٦ .

(٢) المقصود بها معهد أو كنيسة « القيصر يوم » وقد حرف هذا اللفظ في المراجع العربية إلى « قيصرية » أو « قيسارية » ، ثم أصبح له مدلول آخر ، فكان يطلق على السوق الكبيرة ، ويبدو أن معهد القيصر يوم كان يجاوره سوق من هذا النوع ، فأطلق عليه هذا اللفظ ثم عمم استعماله بعد ذلك على كل سوق كبيرة .

وقد أعجب عمرو بالمدينة ومبانيها حتى ليقال إنه كتب إلى الخليفة عمر يصفها له بقوله : « لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى ، واثنى عشر ألف بائع للخضر ، وأربعين ألفاً من اليهود أهل الذمة » (١)

كذلك يروى أنه لإعجابه بها فكر في أن يتخذها عاصمة له ، وأنه نظر إلى مبانيها بعد الفتح وقال : « منازل قد كفيناها » (٢) ، وكتب إلى عمر يعلن إليه هذه الرغبة ، لولا أن عمر أرسل إليه ينصحه باختيار مكان آخر لا يفصل بينه وبين بلاد العرب ماء ، فتحول عمرو منذ ذلك الحين عن الإسكندرية إلى الفضاء المجاور لحصن بابلون ، وبنى عليه عاصمته الجديدة الفسطاط (٣) .

ولم يؤثر تأسيس الفسطاط في مدينة الإسكندرية ، بل لقد حافظت على مكانتها القديمة ، واعتبرت منذ ذلك الحين العاصمة الثانية لمصر ، وظلت دائماً موضع العناية من الخلفاء وولاة مصر ، فقد كانت في نظرهم جميعاً ثغراً من أهم الثغور الإسلامية التي يجب العناية بها وبمحصولها وبوسائل الدفاع عنها .

لهذا لا نعجب إذا رأينا المدينة تنمو في هذا العصر العربي الأول ويزداد عمرانها ، فقد استقر بها عدد كبير من العرب ، ونزلوا بيوتها القديمة ، أو بنوا لأنفسهم بيوتاً جديدة ، تشير المراجع إلى بعضها ، كالبيت الذي بناه الزبير ابن العوام بعد الفتح . والمنزل الكبير الذي كان ينزله خمارويه بن أحمد بن طولون عند مريوط بضواحي الإسكندرية (٤) .

ثم زادت الحامية العربية بالمدينة حتى بلغت ٢٧ ألفاً يرابطون دائماً في المدينة لحمايتها ، وكانت هذه الحامية مقسمة إلى عرافات ، « ولكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، فتكون الدار لقبيلتين أو ثلاث ، وللمدينة أبراج عالية يقف عليها الحراس ، وتسمى مثل هذه الأبراج المحارس ، أو المناظر ، أو المراقب ، أو الطلائع ، فإذا بدا في أفق البحر شيء من سفن العدو أعطى

(١) بتلر ، ص ٣١٩ ، وما به من مراجع ؛ وانظر أيضاً : (السيوطي ، حسن المحاضرة ،

ج ١ ، ص ٥٤) .

(٢) السيوطي ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٥٧ .

(٣) الدكتور جمال الدين الشيال ، (الفسطاط ، كيف اختير مكانها ، ولم سميت

بهذا الاسم) مقال بمجلة الرسالة ، العدد ٦٤٠ ، ٨ أكتوبر ١٩٤٥ .

(٤) الدكتور شعيرة ، المرجع السابق ، ص ٨٦ .

حراس المراقب الإنذار ، فاجتمع الجند كل طائفة في عراقها ، وكان بالرملة (الرمل حالياً) أربعة آلاف فارس للنجدة ^(١) »

وكانت المنارة الكبرى في جزيرة فاروس أعلى هذه الأبراج وأهمها لإشرافها على البحر مباشرة ، وكان المسلمون يحتفلون حولها كل عام احتفالاً خاصاً يعتبر إيداناً ببدء موسم الجهاد والاستعداد ، فكان إذا حل فصل الربيع خرج سكان المدينة في يوم خاص يسمى « يوم خميس العدس » ^(٢) إلى المنارة يقيمون فيها أو حولها يلهون ويلعبون ويأكلون المأكولات المختلفة - ومن بينها العدس - فإذا انتهى اليوم عادوا إلى المدينة ، وبدأ الجنود المربطون يحترسون من ذلك اليوم على البحر والمدينة من هجوم العدو .

ومن معالم المدينة في هذا العصر - غير ما ذكرنا - الدور الحكومية المختلفة تشير المراجع التاريخية إلى وجودها ، غير أنها للأسف لا تحدد مواضعها ، فمنها :
- دار الإمارة ^(٣) حيث كان ينزل الوالى .

- دار الصناعة - أى صناعة السفن - وكانت من أوائل ما أقيم من منشآت في المدينة ، فقد أنشئت في عهد الوالى العربى الثانى عبد الله بن سعد بن أبى السرح لبناء السفن التى اشتركت في موقعة ذات الصوارى ، أول موقعة بحرية انتصر فيها العرب على الروم ، ولعلها أقيمت حيث كانت توجد دار الصناعة الرومانية القديمة في الميناء الشرقية ، وإن كان النويرى يذكر أن الإسكندرية كان بها في القرن الثامن الهجرى داران للصناعة ، إحداهما في الميناء الشرقية والثانية في الميناء الغربية .

- دار الطراز ^(٤) ، وهى الدار الملكية لصناعة المنسوجات ، وأغلب الظن أن الإسكندرية الرومانية كانت تعرف هذا النوع من المصانع ، وأن دار الطراز

(١) نفس المرجع ، ص ٨٨ .

(٢) وصحته : « خميس العهد » وهو من أعياد القبط القديمة ؛ انظر : (المقريزى ، الخطط ،

ج ٢ ، ص ٣٩٢) .

(٣) ذكر (الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٣٦) أن والى مصر (سنة ٤٣ - ٤٤)

عتبة بن أبى سفيان « خرج إلى الإسكندرية مرابطاً ، فابتنى دار الإمارة التى في الحصن القديم (?) » .

(٤) أنظر : الدكتور جمال الدين الشيال ، المقال السابق (الإسكندرية في العصرين

الأيوبي والمملوكي) ، ونفس المؤلف ، (مجمل تاريخ دمياط ، الإسكندرية ١٩٤٩ ، ص ٦٩ - ٧٥) والدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ، (الزخرفة المنسوجة في العصر الفاطمى) ؛ Enc. Isl. Art. Tiraz

العربية ما هي إلا استمرار لهذا المصنع الرومانى القديم بعد إدخال التعديلات المناسبة على نظامه .

عرف خلفاء العصر الأول للإسكندرية هذه المكانة الممتازة - حربياً وعمرانياً واقتصادياً - ولهذا أوشك بعضهم أن يعتبرها إمارة خاصة ، فكانوا يولون عليها من قبلهم أمراء يكادون يستقلون عن ولاية مصر ، كما حدث حين ولى أحمد ابن طولون - أول أمره - على مصر كلها دون الإسكندرية ، فلما توفى باكباك ، وعُين أماجور - هو أحمد بن طولون - خلفاً له ضم إليه ولاية الإسكندرية كذلك . وقد شاركت الإسكندرية - بحكم مركزها هذا - مشاركة فعالة - فى معظم الأحداث السياسية التى شهدتها مصر فى العصر العربى الأول ، وخاصة فى حوادث النزاع بين أمراء مصر الذين حكموها فى العصر العباسى الثانى ، كما بدأت منذ ذلك العصر تتصل بحوادث المغرب والأندلس - بحكم موقعها الجغرافى - وخير مثال لذلك استضافتها للأندلسيين^(١) الذين طردهم من الأندلس الحكيم الربضى بعد ثورات الربض المشهورة ؛ وللحوادث التى قام بها هؤلاء الأندلسيون أثناء مقامهم فى المدينة إلى أن جلوا عنها أثر هام فى تاريخها .

(١) عن أخبار هؤلاء الأندلسيين انظر : (الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٥٨ ، ١٦١ - ١٦٥) ؛ (فازيليف ، العرب والروم ، الترجمة العربية للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة - ١٩٥٠ ، ص ٥٣-٥٧ ، وما به من مراجع) ؛ (وصديق شيبوب ، جمهورية أندلسية بالإسكندرية ، مجلة الكتاب ، فبراير ١٩٤٩) .

فى العصر الفاطمى

ثم بدأت الإسكندرية تنصل بالمغرب اتصالاً وثيقاً منذ أوائل القرن الرابع الهجرى حين نجحت الدولة الفاطمية فى إقامة ملك جديد لها على أنقاض ملك الأغالبة فى إفريقية (تونس) ، فقد كانت الإسكندرية الهدف الأول لحملات الفاطميين الأولى على مصر -- براً وبحراً -- ، وبها نزلت جنود هذه الحملات الأولى الفاشلة وأساطيلها ، وبها نزلت أول ما نزلت جنود وأساطيل الحملة الفاطمية الرابعة التى نجحت فى فتح مصر وامتلاكها (١) .

ومنذ ذلك الحين أخذت الإسكندرية -- شأنها فى ذلك شأن مصر جميعاً -- تزدهر ازدهاراً عظيماً ، فقد أصبحت مصر مقر الخلافة الفاطمية ، كما أصبحت الإسكندرية مقر أسطول هذه الخلافة ، -- وللفاطميين عناية كبيرة بالأسطول منذ قامت دولتهم فى إفريقية -- ، وهى بعد هذا كله الطريق إلى منشأ ملكهم فى المغرب الذى أصبح ولاية تابعة لمصر ، فلا عجب إذن أن عنى الفاطميون بالإسكندرية عناية خاصة ، فأقاموا بها المنشآت الكثيرة ، ولبعض هذه المنشآت أهمية خاصة ، لأنها تساعد على تحديد معالم المدينة وطبوغرافيتها ، وأهم هذه المنشآت مما ذكره لنا المؤرخون :

١ - جامع العطارين :

وينحطى بعض المؤرخين فيذكر أن الذى بناه هو بدر الجمالى وزير المستنصر ولكن الصحيح أنه كان يقوم مكانه مسجد قديم أنشئ على أنقاض كنيسة القديس أنثاسيوس ، فلما زار بدر الجمالى الإسكندرية فى سنة ٤٧٧ هـ وجد هذا المسجد مهتماً فأمر بتجديده وإعادة بنائه ، والصرف عليه « من أموال أخذها

(١) لاستيعاب تفاصيل هذه الحملات انظر : (المقريزى ، اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، نشر الدكتور جمال الدين الشىال ، القاهرة ١٩٤٨) ؛ (والدكتور حسن إبراهيم حسن بك ، الفاطميون فى مصر) ؛ (ولنفس المؤلف بالاشتراك مع الدكتور طه شرف ، عبيد الله المهدي ، والمعز لدين الله) .

من أهل البلد» (١) ، يؤكد ما ذكرنا النص الذي تحمله اللوحة الرخامية التذكارية التي ثبتها بدر في الجامع لتأريخ هذا الحادث ، والتي لا تزال موجودة في الجامع إلى اليوم ، ونص ما عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبو النجم بدر المستنصرى ، عند حلول ركابه بثغر الإسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خراباً ، فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفاً إلى الله تعالى ، وذلك في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة » (٢) .

٢ — المسجد الذى بناه الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهرى الطرطوشى خارج باب البحر بعد سنة ٥١٠ هـ فى خلافة الأمر ووزارة المأمون البطائحي ؛ انفرد بذكر هذا المسجد المقرئى فى النسخة المخطوطة الكاملة الوحيدة من كتابه « اتعاظ الحنفا » التى عثرنا عليها أخيراً فى مكتبة « طوب قبوسراى » باستانبول ، فقد ذكر بها أن الطرطوشى انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة فى سنة ٥١٠ هـ لزيارة الوزير المأمون البطائحي ، وليقدم له كتابه الذى ألفه باسمه وهو كتاب « سراج الملوك » ؛ فأكرمه المأمون وخلع عليه ، وفى ذى الحجة من هذه السنة « حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير ، وعرفه ما عزم عليه من إنشاء مسجد جامع بظاهر الثغر على البحر ، فكتب إلى ابن حديد بموافقة الفقيه على موضع يتخيره ، وأن يبالح فى إتقانه وسرعة نجاهه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة ، وتوجه فبنى المسجد المذكور على باب البحر » (٣) .

وهذا المسجد من المسجد التى زالت وغفت آثارها .

(١) المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، المخطوط الكاملة الوحيدة بمكتبة طوب قبوسراى باستانبول ،

ص ١٠٨ ب .

(٢) الأستاذ حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، ج ١ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) اتعاظ الحنفا ، مخطوطة طوب قبوسراى ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

٣ - مسجد المؤتمن أخى المأمون البطائحي :

وبعد هذه السنة بقليل بنى مسجد آخر هام ، بناه المؤتمن سلطان الملوك ، نظام الدين ، أبو تراب حيدرة ، أخو الوزير المأمون البطائحي ، في المحجة الكبرى ؛ والمحجة الكبرى هي ما نرجح أن تكون الشارع الأكبر الممتد من باب رشيد إلى غرب المدينة ، وقد بنى هذا المسجد في سنة ٥١١ هـ ، أو ما بعدها ؛ ففي تلك السنة عين المؤتمن والياً على الإسكندرية والأعمال البحرية ، وقد ذكر المقرئى أنه بنى هذا المسجد أثناء مقامه في الثغر (١)

٤ - تجديد سور الإسكندرية :

جدد هذا السور في آخر عهد الخليفة الأمر في سنة ٥١٧ هـ ، فقد قال المقرئى عند ذكر حوادث هذه السنة : « وفيها جددت عمارة سور الإسكندرية » (٢) وإن كان لم يفصل أخبار هذا التجديد .

٥ - مدرسة الفقيه المحدث أبى طاهر بن عوف :

وقد بناها له في سنة ٥٣٣ هـ رضوان بن ولحشى وزير الخليفة الحافظ ، وأسند إليه التدريس بها (٣) .

٦ - مدرسة الحافظ السلفى (٤) :

وقد بناها له في سنة ٥٤٤ هـ العادل بن السلا ، وزير الخليفة الظافر ،

(١) اتعاظ الحنفا ، مخطوطة طوب قبو سراى ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٨ ب ، وانظر ترجمة الطرطوشى في : (ابن خلكان ،

وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٦) .

(٤) انظر ترجمته في (ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٥٣ - ٥٥) ،

وفى هذه الترجمة تحقيق لمعلم هام من معالم المدينة القديمة ، وهو مقبرة وعلة ، فقد ذكر ابن خلكان أن السلفى « دفن في وعلة وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشى وغيره »

وفوض تدريسها إليه ^(١) ، وإذا كان من المتداول أن مصر لم تعرف حركة المدارس إلا في عهد صلاح الدين فقد أثبتنا في بحث لنا لم ينشر بعد وعنوانه « معاهد العلم في الشرق العربي في القرنين السادس والسابع » أن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية بنيت فيها المدارس ، منذ أنشئت فيها هاتان المدرستان ، والسبب في هذا واضح ، وهو أن الإسكندرية كانت مدينة يغلب عليها التسنى ، والمدارس منشآت سنية نشأت في كنف السلاجقة والأتابكة ، ثم عمل على نشرها بعدهم الأيوبيون والمماليك ، والجميع دول سنية كان من أهدافها محاربة المذهب الشيعي والدول الشيعية ، ومن أسلحتها في هذه الحرب المدارس .

٧ - برج ضرغام عند باب البحر :

ذكره المقرئ في حوادث سنة ٥٧٧ هـ ، قال : « وفيها شاد الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية ، فعرف ببرج ضرغام » ^(٢) وليس أدل على عمران المدينة وما كانت تزدهر به في العصر الفاطمي من دور وقصور فخمة من الوصف الذي حفظه المقرئ في كتابه « الخطط » لدار أحد القضاة بها وهو « ابن حديد » ، فقد ذكر في وصفه لهذه الدار أنه كان بها بستان جميل به نافورة كبيرة تتكون من قطعة واحدة من الرخام البديع ، ينحدر فيها الماء فتكون كالبركة في اتساعها ، وذكر المقرئ أن صاحبها كان يباهي بها أهل العصر إلى أن علمت بها البدوية حبيبة الخليفة الأمر الفاطمي فطلبتها ، وأجيبته إلى طلبها ، وحملت النافورة إلى القاهرة ، وركبت في بستان « المودج » وهو القصر الجميل الذي بناه الأمر لمحبوته في جزيرة الروضة ، وتآلم ابن حديد لفقده هذه النافورة ألماً بالغاً ، وما زال يتقرب للبدوية بالهدايا إلى أن أمرت برد النافورة إليه ^(٣)

ولمكانة الإسكندرية ، وللازدياد عدد المغاربة بها في هذا العصر الفاطمي ،

(١) المقرئ : (اتماظ الحنفا ، نسخة طوب قبوسراى ، ص ١٤٣ ب) ؛ (وابن خلكان ، الوفيات ، ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧) ؛ (والدكتو عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية في مصر في : العصرين الأيوبي والمملوكي الأول ، ص ٨٢ ، ١٥٨) .

(٢) المقرئ ، اتماظ الحنفا ، نسخة طوب قبوسراى ، ص ١٥٢ أ .

(٣) انظر : (المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨) .

ولقربها من المغرب — موطن الدولة الفاطمية الأول — ظلت تشارك في الأحداث السياسية الهامة التي حدثت في عصر هذه الدولة ، فعند موت الخليفة المستنصر وتولية المستعلى — بسعى الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي — فرّ الأمير نزار المطالب بالخلافة إلى الإسكندرية ، واستعصم بها وبأهلها ، وكانت فتنة خطيرة لم تخدم إلا بعد جهود حربية مضمّنة بذلها الأفضل وجيشه .

وفي عهد الخليفة الظافر زحف على بن السلار — والى الإسكندرية والبحيرة — بجيوش المدينة إلى القاهرة ، واستطاع أن يعزل الوزير ابن مصال ، وأن يلى الوزارة بعده ؛ وكان لهذه الحوادث جميعاً — دون شك — أثر في تخريب المدينة^(١) أو العناية بها .

(١) يدل على هذا قول : (المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، مخطوطة طوب قبوسراى ، ص ١١١ ب) عند كلامه على خروج الأفضل لقتال نزار في الإسكندرية سنة ٤٨٨ : « وحاصرها ونصب عليها المجانيق ، وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة » .

فى العصر الأيوبى

وكما اتصل تاريخ المدينة بتاريخ الفاطميين منذ قدومهم إلى مصر ، فقد اتصل مرة أخرى بتاريخ بنى أيوب منذ الحوادث التى أدت إلى قيام دولتهم فى مصر ، فى الحملة الثانية من حملات أسد الدين شيركوه على مصر استعصم صلاح الدين يوسف بن أيوب بمدينة الإسكندرية (١) ، واحتفى بأسوارها ، وظل محاصراً بها أربعة أشهر طوالاً ، قاسى فى خلالها الأمرين ، ولكنه صمد للحصار بمعونة واليها وناظرها وقاضيا ، وبمساعدة أهليها ، فقد كان معظمهم سني المذهب لا يدينون بالمذهب الشيعى — مذهب الدولة الفاطمية الرسمى (٢) . وفى سنة ٥٦٧ هـ — وهى أول سنة استقل فيها صلاح الدين بأمر مصر — دبرت مؤامرة لعزله وإعادة الدولة المنتهية ، كان قوامها أنصار الدولة الفاطمية وفرنج صقلية ، وقد وفد هؤلاء الفرنج إلى الاسكندرية فى أسطول ضخم فى سنة ٥٦٩ ، واستطاعوا النزول إلى بر الإسكندرية ، وعسكروا خارج أسوارها ، وهاجموا هذه الأسوار بمجانيقهم ، غير أن حامية المدينة استطاعت الصمود لهم ، وردتهم عنها مدحورين منهزمين (٣) .

فلا عجب إذن أن رأينا صلاح الدين يعنى بالإسكندرية عناية خاصة ، فيصدر أوامره بإصلاح أسوارها وترميم حصونها وأبراجها وقلاعها ، وعند ما فرغ من الصعوبات التى اعترضته جميعاً سافر إليها فى رمضان سنة ٥٧٢ هـ ليشرف بنفسه على هذه الإصلاحات والتحصينات (٤) ، وانتهر فرصة وجوده بها وزار أسطولها فوجده خرباً قد نالت منه السنون والأحداث ، فأمر بتعميره وإنشاء سفن جديدة لتقويته ، وأفرد له ديواناً خاصاً سماه (ديوان الأسطول) (٥)

ويبدو أن صلاح الدين لم يعن بإنشاء دار الصناعة وتعمير الأسطول فقط ، وإنما اتخذ وسائل أخرى لتحصين الثغر حماية له من غارات الأعداء ، فقد ذكر

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٢) انظر مقالنا السابق الذكر « الإسكندرية فى العصرين الأيوبي والمملوكي » ص ٩٣ .

(٣) الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٥) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ؛ وابن ماقى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

المقریزی فی خططه عند كلامه عن « عامود السواری » أنه « كان حوله نحو أربعائة عمود ، كسرھا (قراجا) والی الإسكندرية فی أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ورماھا بشاطئ البحر ، لیوعر علی العدو سلوكه إذا قدموا » (١) وكان فی المدينة نشاط علمی ملحوظ يقوم به العلماء من أهلها ومن الوافدين علیها من الشرق والغرب ، وقد نالت هذه الحركة العلمية (٢) الشيء الكثير من تشجيع صلاح الدين ، فكان یحرص فی زيارته المتعددة للمدينة علی زيارة كبرى علمائها : الحافظ السلفی (٣) والحافظ ابن عوف والاستماع إلى دروسهما وفی صحبته أولاده وكبار رجال دولته .

وفی زيارته الأخيرة للمدينة فی سنة ٥٧٧ (١١٨٢) أنشأ صلاح الدين بها مدرسة جامعة — ولسنا نعرف للأسف شیئاً عن موقعها أو تاریخها — یدرس بها مختلف العلوم والفنون ، وألحق بها مساكن للطلبة وحمامات يستحمون بها ، ومارستاناً لعلاج من یمرض منهم ، وقد وصف هذه المدرسة الجامعة الرحالة المعروف ابن جبیر عند زيارته للإسكندرية بعد ذلك بقليل .

وأتباعاً لسیاسته فی القضاء علی المذهب الشيعی وعلى آثار الدولة الشيعية المنتهية أمر ببناء مسجد جدید فی الإسكندرية ، ونقل الخطبة إليه (٤) ، بعد أن كانت تقام فی العصر الفاطمی فی أكبر مساجد المدينة فی ذلك العصر وهو مسجد العطارین (أو مسجد الجیوشی) ، وقد حاولنا التعرف علی مكان هذا المسجد الهام ، ولكننا لم نستطع ، لأن المراجع التي ذكرته لم تشر إلى موقعه للأسف . وكان لهذه العناية الملحوظة التي أسبغها صلاح الدين علی ثغر الإسكندرية أثرها البالغ فی تقدم المدينة ورفاهية أهلها وازدياد عمرائها ونشاط تجارتها الداخلية

(١) المقریزی ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٥٧ ؛ وواضح أن هذه العمد كانت بقايا معبد السیرابیوم القديم .

(٢) عن الحياة الأدبية فی الإسكندرية فی العصر الأيوبي انظر مثلاً : (كتاب بدائع البدائ لعلی بن ظافر الأزدي) ؛ وعن الحياة العلمية انظر : (الدكتور عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فی مصر فی عصر الدولتين الأيوبيه والملوكية الأولى ، وما به من مراجع) .

(٣) الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤ ؛ وللحافظ السلفی كتاب قیم عنوانه (معجم السفر) ترجم فيه لعدد كبير من العلماء الذين اتصلوا به أثناء مقامه بالإسكندرية ، فهو بهذا من المراجع الهامة لدراسة الحياتين الأدبية والعلمية فی مدينة الإسكندرية فی القرن السادس الهجري ، وجبذا لو نشطت إحدى الهيئات لنشره ، وفی دار الكتب المصرية صور شمسية منه .

(٤) المقریزی ، اتعاظ الحنفا ، نسخة سراي ، ص ١٠٨ ب .



الإسكندرية في القرن ١٥ م (سنة ١٤٧٢)

والخارجية ، فقد زارها الرحالة ابن جبير (١) أواخر سنة ٥٧٨ (١١٨٢) ووصفها بقوله : « إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً ، ومن العجب في وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمن ، لأن الماء من النيل يخترق ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً . . . وهو من أكثر بلاد الله مساجد ، حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثرون والمقل ، فالمكثرون ينهى في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد ، والمقل ما دون ذلك ، لا ينضب ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة فهي كثيرة جداً ، تكون منها الأربعة والخمسة في موضع ، وربما كانت مركبة ، وكلها بأئمة مرتين من قبل السلطان ، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر . . . ومنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونه ، وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان (يقصد صلاح الدين) إلى غير ذلك مما يطول ذكره في المآثر . . . إلخ » .

هذا وصف هام للمدينة وعمراها في أوائل عصر صلاح الدين ، وإن كان يعيبه شيء من المبالغة والإجمال ، فهو لا يعين بالاسم أهم هذه المساجد والمنشآت أو يحدد مواضعها ، إلا أنه وصف صادق تؤيده المصورات التي رسمت للمدينة في العصور الوسطى ، فهذان المصوران اللذان رسماهما في القرنين ١٥ و ١٦ يبدو فيهما واضحاً فروع الخليج التي تخترق شوارع المدينة لتمد منازلها وآبارها وصهاريجها بالمياه العذبة ، كما تبدو فيهما بوضوح أيضاً هذه المآذن الكثيرة التي تتخلل كل ناحية من نواحي المدينة تشير إلى هذه المساجد التي كانت تتراوح — كما يقول ابن جبير — بين ثمانية آلاف (٢) في رأى المقل ، واثني عشر ألف في رأى المكثرون .

(١) انظر (رحلة ابن جبير ، ص ٤٠ - ٤٥) ، وراجع أيضاً :

Garcia de Herreros (Enrique): Quatre Voyageurs Espagnols à Alexandrie d'Egypte : Benjamin de Tudela 1166-71, Ibn Goubair 1183-85, Pero Tafur 1435-39, Ali Bey el Abbassi (Domingo Badia) 1803-7. Alex. 1923.

(٢) هذه الأرقام التي يوردها ابن جبير تبدو المبالغة فيها واضحة ، ويخيل إلى أن كثرة المساجد في المدينة هي التي دعت إلى هذه المبالغة ، وإلا فإن كاتباً معاصراً له وهو محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة الذي زار الإسكندرية في سنة ٥٦٠ (١١٦٤) وأقام بها نحو الأربعين =

وهذه الإشارة إلى المساجد تعطينا صورة واضحة كذلك لما كانت عليه المدينة من عمران في العصر الفاطمي السابق ، لأن هذه الآلاف من المساجد لم تبني قطعاً في أوائل عهد صلاح الدين ، وإنما بنيت في العصور السابقة ، وخاصة في العصر الفاطمي .

كما أن هذه الإشارة إلى المباني الفوقية — وهي الدور والمنازل — والمباني التحتية المعنى بها — وهي الآبار والصهاريج — يؤكد صحتها ما يتردد من أقوال مشابهة في كتب الرحالة والجغرافيين العرب الآخرين عند وصفهم لمدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي .

وقد زار الإسكندرية الرحالة اليهودي « بنيامين التطيلي » في السنوات الأولى من حكم صلاح الدين — أي قبل زيارة ابن جبير لها بنحو ١٧ سنة — ، ووصف المدينة وشوارعها ومبانيها وصفاً ممتعاً لا يختلف كثيراً عن وصف ابن جبير لها ، وإن كان هذا الوصف يؤكد أن المدينة كانت لا تزال تحافظ على تخطيطها العام الذي عرفت به من أقدم العصور ، فقد قال : « ومدينة الإسكندرية مشيدة على طبقات ، معقودة تحتها الكهوف والمغاور ، وشوارعها مستقيمة لا يحد البصر آخرها لطولها ، فالشارع الممتد من باب رشيد إلى باب البحر ينوف على الميل طولاً ، وفي مرساها رصيف يمتد في البحر إلى مسافة ميل أيضاً » (١)

ثم عني عناية خاصة بوصف منار الاسكندرية ، وأتى على طرف من تاريخه ختمه بقوله : « ولا يزال منار الإسكندرية يهدى السفين الغادية والرائحة ، ويشاهد عن بعد مائة ميل نهراً ، وفي الليل ينبعث منه نور يهتدى به الملاحون » وأهم ما في وصف بنيامين ثبت دقيق مفصل أحصى فيه الممالك والأقطار الأجنبية التي كانت تتبادل التجارة مع الإسكندرية في ذلك الوقت ، ومن هذا الثبوت نعرف أن أنواع التجارة وألوانها المختلفة كانت تندفق إلى الإسكندرية من كل بلدان أوروبا المسيحية ، ومن كل بلدان الشرق الإسلامية

= سنة ، يقول عند وصفه المدينة : « وبها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ للخطبة ؛ وبها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم بها » ؛ انظر : (حسن عبد الوهاب ، مقاله السابق الذكر عن « الإسكندرية في العصر الإسلامي » ، ص ٣٨٧) وقد ذكر في هذا المقال أسماء بعض هذه المساجد والمدارس التي حفظها لنا المراجع التاريخية .

(١) الترجمة العربية للرحلة ، طبعة بغداد ، ص ٩ - ١١ .

وغير الإسلامية ، والحديد فى وصفه إشارة إلى نوع جديد من المنشآت عرفته الإسكندرية والثغور المصرية فى العصور الوسطى ، وهو الفنادق ^(١) التى كان يأوى إليها تجار الممالك والدول الأوروبية المختلفة ، يسكنون فى أعاليها ، ويعرضون بضاعتهم فى أسافلها ؛ قال بنيامين : « وتأتىها من الهند التوابل والعطور بأنواعها ، فيشتريها تجار النصارى ، ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم ، وهم فى ضجة وحلبة يبيعون ويشترون » : وهو وإن لم يشر فى وصفه إلى مكان هذه الفنادق أو يصفها إلا أننا نستطيع أن نرجح أنها كانت تقوم داخل المدينة بالقرب من باب البحر الذى كان يطل على الميناء الشرقية مباشرة — مرسى سفنهم — أى حيث يقوم حى المنشية وشارع الميدان الحاليان .

وإن كانت رحلة بنيامين تعطينا صورة واضحة عن تجارة الإسكندرية الخارجية فى عصر صلاح الدين ، فإن كتاب قوانين الدواوين ^(٢) لابن مماتي به إشارات كثيرة إلى نشاط التجارة الداخلية للإسكندرية فى هذا العصر .

وعلى نهج صلاح الدين فى العناية بالإسكندرية سار معظم من أتى بعده من ملوك بنى أيوب ، فإن المراجع تذكر أن ابنه العزيز ^(٣) عثمان زار المدينة مرتين — بالرغم من قصر مدة حكمه — للإشراف على شؤونها ، وأن أخاه العادل أبا بكر زارها ثلاث مرات « لكشف أحوالها » ^(٤) ، ولكننا مع هذا لا نعرف أن أحداً منهم قد أقام بها منشآت جديدة .

(١) عرف (متر ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ، ترجمة الدكتور أبو ريدة ، ج ٢ ، ص ٢٨٤) الفنادق بقوله : « أما فى غرب المملكة الإسلامية فلم يكن هناك فنادق إلا للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة ، وكانوا يضعون بضائعهم فى أسفلها ، وينامون فى أعلاها ، ويفلقون غرفها بأقفال رومىة ، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم الفنادق (من الكلمة اليونانية Pandokeion) » ، هذا وكان يقابل الفندق أو يشبهه — وإنما للتجار المسلمين — الخان أو الربع ، أما فى العصر العثماني فكان يطلق على هذا النوع من البناء عامة «الوكالة» ، وقد شهدت الحملة الفرنسية عند نزولها بالإسكندرية عدداً من «هذه الوكالات» أو «الوكائل» تطل على الميناء الشرقية ، وفى كتاب : Description de l' Egypte صور بعض هذه الوكالات .

(٢) قوانين الدواوين ، ص ٢٥٧ ، ومقالنا السابق عن الإسكندرية فى العصرين الأيوبي والمملوكي .

(٣) السلوك للمقرئى نشر — زيادة — ج ١ ، ص ١٣٨ ، ١٤٣ .

فى العصر المملوكى

وفى عصر المماليك ارتفعت مكانة الإسكندرية حتى أصبحت ميناء مصر الأولى ، وثانى مدينة بعد القاهرة ، وذلك لسببين : أحدهما اقتصادى ، والثانى حربى .

أما السبب الاقتصادى فرجعه أن تجارة مصر الخارجية مع الشرق والغرب قد ازدهرت فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، حتى لقد أصبحت الرسوم على التجارة الخارجية تكون جزءاً كبيراً من دخل الدولة ، وإذ كانت الإسكندرية هى ميناء المرور لهذه التجارة الشرقية والغربية فإنه من السهل أن نتصور مبلغ ما نعمت به المدينة وأهلها من رخاء وثروة ، ومبلغ ما كان لهذه الثروة من أثر فى عمرانها ونموها وازدهارها .

وأما السبب الحربى فرجعه إلى تحول أنظار الصليبيين ، أو بعبارة أدق — بقاياهم فى جزر البحر الأبيض المتوسط وأوروبا — إلى الإسكندرية بعد أن منيت الحركة الصليبية بالفشل الذريع فى حملتها على دمياط فى عهدى الملك الكامل محمد والملك الصالح نجم الدين أيوب .

وقد رأت الدولة المملوكية بعد فشل الحملة الأخيرة الصواب فى هدم مدينة دمياط حتى لا يفكر الصليبيون فى تجديد الإغارة عليها ، ومنذ ذلك الحين ، ومنذ أحس سلاطين المماليك تحول الأنظار إلى الإسكندرية بدأت عنايتهم بهذه المدينة ، واستجاب الأهليون لهذه الرغبة ، فأخذوا يعملون من جانبيهم على المشاركة فى تحصين المدينة والدفاع عنها .

أما تخطيط المدينة العام فلم يتغير فى هذا العصر ، وإنما بقى هو هو كما عهدناه فى العصور السالفة ، وإنما خضعت المدينة فى هذا العصر لشيء من التغيير تبدو مظاهره فى زوال بعض المنشآت القديمة المعروفة ، وإقامة منشآت جديدة كثيرة هى صدى للرخاء الاقتصادى الذى نعمت به المدينة فى هذا العصر ، وللعاية البالغة التى أسبغها سلاطين المماليك على المدينة .

أما المنشآت الجديدة فكانت فى معظمها من وحى الروح التى سادت

العصر ، وهى روح اجتهاد الدينى : الجهاد بالسلاح والجهاد بالعلم ، لهذا امتدت الحركة التى امتاز بها العصران الأيوبي والمملوكى ، وهى حركة إنشاء المدارس والخوانق والربط والزوايا حتى شملت الإسكندرية ، فأنشئ فى الاسكندرية فى العصر المملوكى عدد كبير من هذه المؤسسات العلمية التى تقوم - فى معظمها - على أساس من التصوف وما يستتبعه من شعر صوفى ودراسات وابتهالات صوفية ، -وفى أقلها- على التفقه فى العلوم الدينية المختلفة ، وسنشير هنا إلى بعض المؤسسات العلمية التى أقيمت فى العصر المملوكى ، وهى مما أحصاه الأستاذ حسن عبد الوهاب فى مقاله « الإسكندرية فى العصر الإسلامى »

— رباط الواسطى :

ويقع الآن شرقى مسجد أبى العباس المرسى ، وقد تحول إلى زاوية صغيرة يتصل بها من الناحية القبية قبة صغيرة يتوسطها قبران ، ويوجد أمام الشرقى منها لوح من الرخام منقوش عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبى ، كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة - (الآية) - توفى الشيخ السعيد الأمين المفضل المرتضى أطكين شهاب الدين أبو على منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبو الفتوح نصر بن الشيخ أبى الفضل جعفر الواسطى القاضى العدل . ليلة الجمعة رابع شهر شعبان الشريف سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى ونور ضريحه » .

— رباط سوار :

وكان يقيم به أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبى المتوفى سنة ٦٧٢ (١٢٧٣)

— دار الحديث التكريتية :

وهى المعروفة الآن « بمسجد أبو على » بشارع البلقطنية بقسم الجمرك ، أنشأ هذه المدرسة عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن رشيد الربعى التكريتى نزىل الإسكندرية ، والمتوفى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤) ؛ وذلك لتدريس الحديث

الشريف والمذهب الشافعي . وقد تحولت إلى زاوية صغيرة في القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) ، ولا زالت تحتفظ باللوحة التذكارية لإنشائها ، ونص ما عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجي رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتي ، لتلاوة الكتاب العزيز ، وقراءة الأحاديث النبوية ، وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي — رحمة الله عليه — في شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه » .

— دار الحديث النبوية :

وتولى مشيختها إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن الغرافي الإسكندري المتوفى سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ م) .

— رباط الهكاري :

أنشأه خارج باب رشيد محمد بن الأمير زين الدين أبي الفاخر باخل بن عبد الله الهكاري الإسكندري متولى ثغر الإسكندرية ، المتوفى سنة ٦٨٣ هـ ، ودفن فيه .

— خانقاه بيليك المحسني :

أنشئت في أواخر القرن السابع الهجري ، وتولى مشيختها موسى بن أحمد بن محمود الأقصري المتوفى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م)^(١)

— مسجد أبي العباس المرسى :

توفي هذا الصوفي المغربي العظيم في ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧) فدفن في قبره المعروف بالجبانة القديمة إزاء رباط الشاطبي خارج باب البحر من ظاهر الإسكندرية بمحرس سوار قريباً من قبة المغاوري ، وظل قبره قائماً وحده دون بناء يحيط به ، ويقصده الزوار للتبرك به إلى أن كانت سنة ٧٠٦ هـ

(١) أحصى هذه المؤسسات العلمية : (الأستاذ حسن عبد الوهاب في مقاله : الإسكندرية في العصر الإسلامي . مجلة الكتاب ، عدد يناير ١٩٤٧) .

(١٣٠٧) حيث زاره كبير تجار الإسكندرية وقتذاك الشيخ زين الدين بن القطن ، وبعد هذه الزيارة بنى على القبر ضريحاً وقبة ، وأنشأ له مسجداً حسناً ذا منارة مربعة الشكل ، وحبس على الجميع بعض أملاكه (١) .

أما عناية السلاطين فكانت أهدافها المنشآت الحربية والدينية والعمرانية القديمة في المدينة ، يوالونها بالإصلاح والترميم والتحصين والتقوية ، وقد يقيمون إلى جانبها منشآت جديدة من نفس النوع ؛ وأهم ما عنى به سلاطين المماليك من هذه المنشآت : المنارة ، والأسوار ، وما يتصل بها من قلاع وأبراج وحصون ، والخليج ، والدور الحكومية المختلفة : كدار الصناعة ، ودار الطراز ، ودار الضرب ، ودار النياحة ، وخزائن السلاح -- إلخ ، وأخيراً المساجد والمدارس ، وما يتصل بها . وسنحاول أن نتتبع فيما يلي جهود سلاطين المماليك وجهود الأهلين في هاتين الناحيتين :

كان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى أول من توفر على العناية بالإسكندرية من سلاطين المماليك ، فقد ذكرت المراجع أنه زار المدينة أربع مرات ، وأنه كان يترك بها في كل زيارة من هذه الزيارات أثراً يدل على مبلغ اهتمامه بها .

أما الزيارة الأولى فقد وصفها المؤرخ جمال الدين بن واصل في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ، ولوصفه أهمية خاصة فقد كان شاهد عيان لها ، لأنه كان في معية السلطان ، وقد ذكر في هذا الوصف أن السلطان دخل من باب رشيد ، وأنه مضى نهاره كله في الإشراف على مهمات الثغر وأمور المدينة ، ثم أمر بكسوة الجامع وعمل قناديله وعمارته من ماله الخاص ، واتجه بعد ذلك لزيارة الشيخ القبارى - وكان يقيم في بستانه بأطراف المدينة - فلما أتاه وتحدث إليه لم يكن للشيخ من حاجة يزجها إلى السلطان إلا نصحه

(١) وقد جدد هذا المسجد مرات كثيرة بعد ذلك في السنوات : ٨٨٢ هـ و ٩٠٥ هـ و ٩١٨ هـ و ٩٢٨ هـ وفي العصر الحديث أمر الملك فؤاد - رحمه الله - ببناء مسجد جديد لأبي العباس ، وأن ينشأ أمامه ميدان فسيح يسمى ميدان المساجد ليشراف عليه المساجد الخمسة المحيطة به ، وأهمها مسجد أبي العباس ومسجد البوصرى ومسجد ياقوت العرش ، وقد تم إنشاء هذا المسجد الجميل وتنظيم الميدان - حيث كانت تقوم جبانة أبي العباس المرسى وبعد نقل رفات المدفونين بها - في عهد الملك فاروق ؛ انظر : (حسن السندوي، أبو العباس المرسى ومسجده الجامع بالإسكندرية، القاهرة، ١٩٤٤) .

إياه أن يعنى بعمارة الثغر وتحصينه ، فقدّر بيبرس نصحه وخرج من عنده فقصّد مباشرة إلى أسوار المدينة فطاف بها وأمر بترميمها والعناية بها (١) ، ثم اتجه بعد ذلك لزيارة شيخ الإسكندرية ومتصوفها الثانى الشيخ الشاطبى .

وفى زيارته الثانية سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٥) لاحظ بيبرس أن خليج الإسكندرية قد طمرته الرمال فى بعض أطرافه ، فاهتم بحفره ، وبأشّر الحفر بنفسه ، وعمل فيه الأمراء وسائر الناس حتى زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج .

وفى سنة ٦٧١ (١٢٧٢) علم بيبرس - وهو مقيم بالقاهرة - بتأهب الفرنج للحركة نحو ثغور مصر ، فاهتم بأمر الشوانى « ونصب على أسوار الإسكندرية نحو مائة منجنيق » لإحكام الدفاع عنها .

وفى زيارته الرابعة سنة ٦٧٣ (١٢٧٤) لاحظ بيبرس أن منارة الإسكندرية قد تهدمت وتشعث بنيانها ، فأمر ببناء ما تهدم منها ، وأشأ فى أعلاها مسجداً مكان قبة كان قد أقامها هناك أحمد بن طولون ، ثم أسقطتها الرياح فى سنوات سالفة .

وكان الناصر محمد بن قلاوون ثانى من اهتم بثغر الإسكندرية من سلاطين المماليك ، وفى سنة ٧٠٢ (١٣٠٢) ، وفى عهد سلطنته الثانية ، حدث بالشرق الأدنى زلزال كبير ، وأصاب هذا الزلزال فيما أصاب مدينة الإسكندرية ومنارها وسورها وحصونها ، وقد روى المقرئى أن ما هدم من السور كان ستاً وأربعين بدنة وسبعة عشر برجاً ، وأن السلطان قد كتب إلى والى الإسكندرية بعمارتها فعمرها ، أما المنار - وكان قد سقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة - فقد عممه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى شهور سنة ٧٠٣ هـ .

ويبدو أن العناية بترميم ما هدم من المنار لم تكن كبيرة ، فقد زاره ابن بطوطة فى رحلته الأولى إلى مصر سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥) - أى بعد حوادث الزلزال بثلاث وعشرين سنة - وقرر أنه رأى أحد جوانبه مهتماً ؛ ولعل السر فى

(١) (مفرج الكروب ، نسخة باريس ، ص ١٤٢٣ - ٤٢٣ ب) ، وتوجد فى مكتبة البلدية بالإسكندرية رسالة صغيرة ، رقم ١٦٨٥ ب بعنوان « مقامات سيدى أبى القاسم بن منصور ابن يحيى الإسكندرى المعروف بالقبارى المتوفى سنة ٦٦٢ هـ » بها ترجمة موجزة لحياته اختصرها الشيخ أحمد حمزة عن ترجمة أخرى مطولة - غير موجودة - بقلم ناصر الدين بن المنير .

هذا أن الناصر محمداً كان قد اعترم إقامة منار جديد بإزاء المنار القديم ، لهذا أهمل المنار القديم طول عهده حتى نالت منه يد البلى والخراب ، ولم يعد صالحاً للاستعمال البتة ، فلما زاره ابن بطوطة في رحلته الثانية في سنة ٧٥٠ (١٣٤٩ - ١٣٥٠) وصفه بقوله : « وقصدت المنار عند عودتي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعائة ، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر - رحمه الله - شرع في بناء منار مثله بإزائه ، فعاقه الموت عن إتمامه » .

ولهذا الوصف أهمية خاصة ، فهو يشير إلى معلم جديد من معالم المدينة ، وهو المنار الجديد الذي أنشئ بإزاء المنار القديم - أى في نهاية رأس لوكياس أو رأس السلسلة (١) - وأن هذا المنار بدئ في بنائه في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وأنه تم في عهود من أتى بعده من السلاطين ، ويؤكد أقوال ابن بطوطة أننا نرى هذا المنار الجديد مثبتاً واضحاً في المصورات التي رسمت للمدينة بعد ذلك بقليل في القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده .

أما أكبر هدية قدمها الناصر للإسكندرية فهي الخليج الناصري ، فقد بلغه في سنة ٧١٠ - وفي عهد سلطنته الثالثة - أن خليج الإسكندرية القديم قد طمرته الرمال فلم تعد مياه النيل تصل إلى المدينة ، وأصبح سكانها يشربون من المياه المخزونة في الصهاريج ، وأن السفن لم تعد تصل بالتاجر إلى الإسكندرية ، وسافر متولى الإسكندرية إلى القاهرة وقابل السلطان الناصر - وبين له المنافع التي تعود على المدينة خاصة ، وعلى الدولة عامة لو أعيد حفر الخليج .

وأعجب السلطان بالفكرة ، وندب الأمراء للأشراف على تنفيذ المشروع ، وكان يشترك في حفر الخليج أربعون ألف رجل ، وأفرد لأهل كل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل : وتنفيذ هذا المشروع يعد من أهم الأعمال العمرانية التي تمت في عهد الناصر محمد - إن لم يكن أهمها - ، فقد انتقل بمخرج الخليج من الضهرية (أو الظاهرية وهي شمالي كفر الزيات بقليل) إلى العطف حيث تخرج ترعة المحمودية الحالية ، ثم أنشأ الجزء الواصل من العطف إلى كفر الحماة

(١) سميت المنارة الجديدة باسم برج السلسلة ، وقد سمي البرج والرأس بالسلسلة لأنه كان موضع مأوى بحري ، أى أنه كان يمتد منه سلسلة لقفل البوغاز ومنع سفن الأعداء من الدخول إلى الميناء . انظر : (ميخائيل عواد ، المأوى في بلاد الروم والإسلام ، بغداد ١٩٤٨ ، ص ٤٨ - ٥١) .

إلى الإسكندرية إنشاء ، وعظمت المنفعة بتنفيذ هذا المشروع ، فإن السفن جرت فيه طول السنة . واستغنى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصحاريج ، وبادر الناس للعمارة على جانبي الخليج ، فلم يمض غير قليل حتى استجد - كما يقول المقرئ - ما يزيد على مائة ألف فدان زرعت بعد ما كانت سباخاً ، وما ينيف على سبائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسسم ، وفوق الأربعين ضيعة ، وأزيد من ألف غيط بالإسكندرية ، وعمرت منه عدة بلاد كثيرة ، وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد فيه .

يعني من هذا الوصف ما يشير إليه المقرئ من آثار حفر هذا الخليج على المدينة تجارياً وعمراً ، وإمكان زراعة ألف غيط جديد داخل مدينة الإسكندرية ، وهذه حقيقة تؤكدها مصورات المدينة ، فالأجزاء الجنوبية من المدينة تغطيها - في هذه المصورات - الحقول والبساتين .

وظل هذا الخليج - الذي سمي بالناصرى منذ ذلك الحين - يجلب هذه المنافع إلى الإسكندرية ومديرية البحيرة ستين سنة كاملة ، أى إلى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨) حيث قلت العناية بتطهيره ، فطمرته الرمال ، وصار الماء لا يدخل إليه إلا في أيام الفيضان ، ثم يحف زمن التحريق ، فتلّف من أجل هذا أكثر بساتين الإسكندرية وخربت ، وتلاشى كثير من القرى التي قامت على ضفتي هذا الخليج ، وظل الخليج على هذه الحال السيئة ستاً وخمسين سنة أخرى إلى أن تداركه السلطان الملك الأشرف برسباى بعنايته ، فأعاد حفره في سنة ٨٢٦ (١٤٢٣) .

وتوفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وخلفه على عرش مصر عدد كبير من أولاده وأحفاده لم تكن لم شخصيته الفذة ولا همته العالية ، بل كان معظمهم أطفالاً صغار السن ، فاستبد بشؤون الملك دونهم كبار الأمراء من المماليك ، وكثرت المنازعات بين هؤلاء الأمراء حتى شغلهم النزاع في سبيل الاستئثار بالسلطان عن العناية بشؤون مصر عامة ، والثغور خاصة (١) . واتجهت أنظار بقايا الصليبيين في قبرص إلى الإسكندرية ، ووصلت أساطيلهم بقيادة « بطرس لوزنيان Pierre I de Lusignan » (٢) - ملك

(١) انظر مقالى السابق الذكر (الإسكندرية في العصرين الأيوبي والملوكى) ، ص ١٠٠ .

(٢) المرجع الأول لدراسة أخبار هذه الحملة هو كتاب النويرى السكندرى (الإمام =

قبرص - إليها في سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥) - أى في عهد السلطان الطفل الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد .

واستطاع جنود هذه الحملة أن ينزلوا إلى البر ، وأن يقتحموا أبواب المدينة ويدخلوها بعد مقاومة ضئيلة ، ولم يستطع جنغرا - وإلى المدينة - أن يصمد لمقاومة القبارصة ، ففر إلى دمنهور ، وفر معه من استطاع النجاة بنفسه من الجند والأهلين ، وعاث الصليبيون في المدينة فساداً ، فقتلوا معظم من بقي بها ، وأسروا الباقين ، وخرّبوا المدينة تخريباً تاماً ، وهدموا دورها وقصورها ، ونهبوا فنادقها ومتاجرها ، ونقلوا هذا كله إلى سفنهم ، ولم ينقذ المدينة إلا اختلاف دب بين رجال الحملة ، فقرروا مغادرة الإسكندرية والعودة إلى جزيرتهم بعد أن قضوا بها أربعة أيام لم ينوا في خلالها عن التخريب والتدمير والنهب والسلب ، ووصلت نجدة السلطان بعد أن غادر جنود الأعداء المدينة ، وبعد أن « أخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك ما لا يحصى ولا يوصف » .

وقد شعر السلطان الملك الأشرف شعبان منذ تلك الواقعة أن الإسكندرية قد غدت محط أنظار الفرنج ، فزادت عنايته بها ، ورفع مكانتها ، وزاد في قدر حاكمها ، فبعد أن كانت ولاية يليها وال من أمراء الطبلخاناه جعلها الأشرف شعبان - في نفس السنة التي غزاها فيها القبارصة - نيابة يحكمها نائب من الأمراء المقدمين ، له ما للسلطان في القاهرة : فله دار النيابة - وهي مقر حكمه - ، وجعل في دار النيابة هذه كرسي للسلطنة ، كما رسم بأن يكون للنائب مواكب رسمية خاصة تسير في طريق محدد - شأن المواكب السلطانية بالقاهرة - فكان

=بالأعلام بما جرت به الأحكام المقضية إلخ) وقد أسلفنا الإشارة إليه فيما سبق هنا ، وهناك عدة أبحاث أخرى كتبت عن الموضوع نشير إلى أهمها فيما يلي :

- Herzsohn : Der Ueberfall Alexandriens durch Peter I. von Lusignan. Dissertation. Berlin. 1894.
- Capitanovici : Die Eroberung von Alexandria durch Peter I. von Lusignan. Dissertation. Berlin. 1894.
- Kahle : Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria. in "Melanges Maspéro". (Mém. Inst. Franc. Caire: t. 68) 1935. P.p. 137-154.
- Machaut (Guillaume de) : La Prise d'Alexandrie; ou, Chronique du roi Pierre 1er. de Lusignan. Publiée pour la première fois pour la Société de l'Orient Latin par M.L. de Mas Latrie. Genève. 1877.
- Attiya «Aziz Suryal» : The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938. P.P. 348-377.

موكب نائب الإسكندرية يبدأ من دار النيابة ، فيخرج من باب البحر ، ويسير خارج المدينة قدر ساعة ، ثم يعود من نفس الطريق إلى دار النيابة ، فإذا كان الموكب من المواكب التي يتلوها السباط وضع كرسى السلطنة في صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف بنمجة سلطانية ، ومد السباط تحته ، وجلس النائب في ناحية من الإيوان بجوار شباك يطل على الميناء (١) ، وجلس رجال الدولة بترتيب خاص ، شأنهم في ذلك شأن رجال الدولة في مجلس السلطان بالقلعة .

وهذا الوصف للموكب ، وإن كان لا يحدد موقع دار النيابة تحديداً دقيقاً — إلا أنه يمكننا من تحديد هذا الموقع تحديداً تقريبياً ، لأنه ينص على أن شباكها الذي كان يجلس النائب إلى جانبه كان يطل على الميناء ، والمقصود هنا الميناء الشرقية ، لأن الوصف نص مرة ثانية على أن الموكب كان يبدأ من دار النيابة ، ثم يخرج من باب البحر ، وباب البحر هو المؤدى إلى الميناء الشرقية ، فدار النيابة إذن كانت في مكان ما بميدان محمد على الحالي بحيث تطل على الميناء الشرقية .

ولهذا الوصف أهمية أخرى عند التعرف على طبوغرافية المدينة في هذا العصر المملوكي ، فهو ينص على أن الموكب كان يسير بعد خروجه من باب البحر خارج المدينة قدر ساعة ، أى أن هذه الرقبة التي تصل المدينة بجزيرة فاروس كانت حتى أواخر القرن الثامن الهجري لا تزال تعتبر من أرباض المدينة ، وأنها لم تكن قد سكنت بعد ، وستفيدنا هذه الحقيقة عند تتبع طبوغرافية المدينة وما طرأ عليها في العصر العثماني : فإن العمران سيتحول في هذا العصر عن المدينة ، ويمتد إلى هذه الرقبة ويستقر بها بحيث تصبح هي وحدها المدينة كل المدينة .

وفي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ - ١٣٦٩) كان السلطان الملك الأشرف شعبان قد شارف البلوغ وقارب السادسة عشرة من عمره ، واستطاع أن يدبر شؤون الحكم بنفسه ، فرأى أن يذهب إلى الإسكندرية ليشرف على حصونها ومنشأتها وأسوارها ووسائل الدفاع عنها ، وقد شاهد هذه الزيارة المؤرخ السكندري محمد ابن القاسم بن محمد النويري ، ووصفها وصفاً مسهباً ، ولهذا الوصف قيمة خاصة

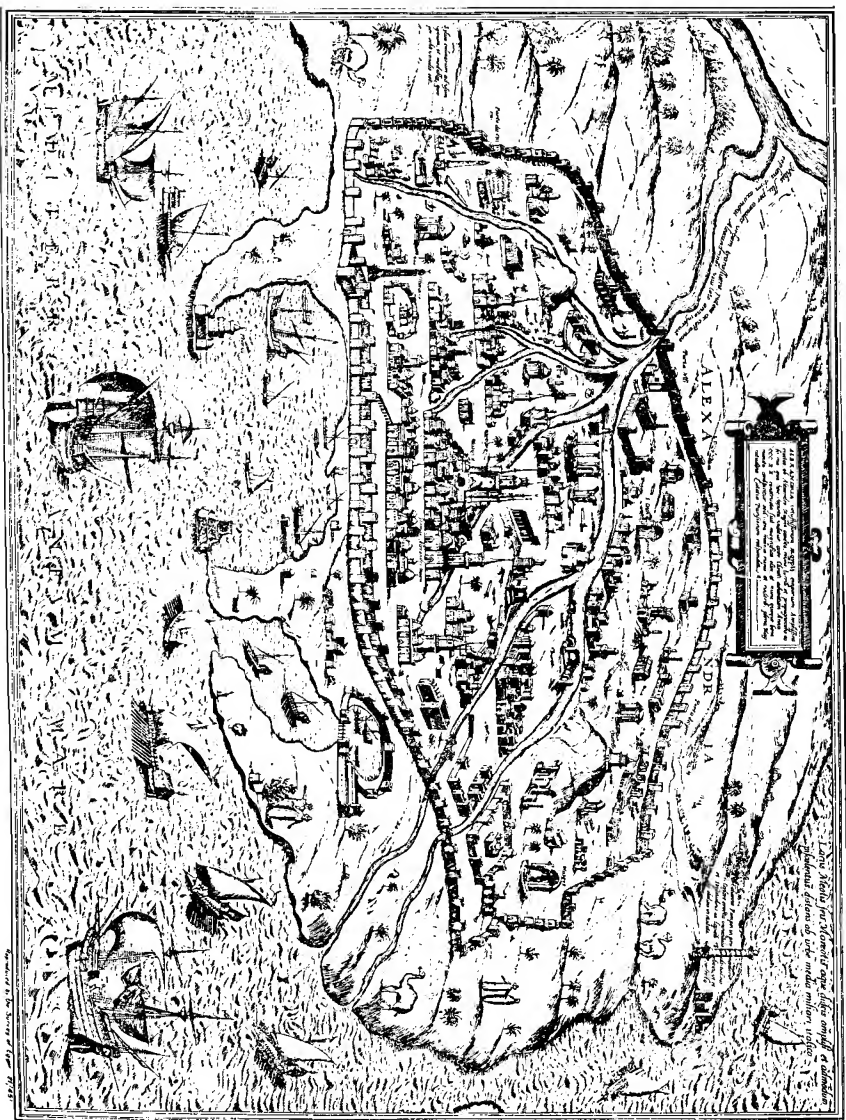
(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٦٣ - ٦٤ ؛ انظر كذلك : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٤ ، ٣٧ .

لأنه يتضمن بيانات نادرة عن تاريخ المدينة وطبوغرافيتها في ذلك الوقت ، وبمراجعته نستطيع أن نرسم مصوراً تفصيلياً للمدينة وأسوارها وأبوابها والكثير من أحيائها ومعالمها وشوارعها في ذلك العصر ؛ فهو يذكر أن السلطان دخل المدينة من باب رشيد ، ثم يعدد الأحياء التي مر بها إلى أن وصل إلى باب البحر المقابل للميناء الشرقية ، فيقول إنه سار — بعد دخوله من باب رشيد — فيما كان يسمى وقتذاك بالحجة العظمى — وهو ما نرجح أن يكون شارع فؤاد الأول الحالي أو الطريق الكانوبى القديم — ، ثم مر بمسجد أبى الأشهب ، وعطف عطفته فرعلى دار ابن الجباب ، ومنها إلى جفار القصارين ، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر ، فنثر عليه مقابل دار العدل^(١) ودار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس .

هذه أحياء ومعالم قد زالت ولم يعد لها أثر في الاسكندرية الحديثة ، وإنما بقيت لها دلالاتها الهامة عند كتابة تاريخ المدينة العمرانى والاقتصادى ، فالنويرى يذكر أن الطريق إلى باب البحر كان في نهايته — وبالقرب من هذا الباب — جفار القصارين ، وهو ساحة يباشر فيها القصارون تقصير الثياب ، أى دقها وضربها ، وهى مرحلة من مراحل صناعة النسيج في تلك العصور ، وبالقرب من ذلك الجفار معلمان اقتصاديان هامان ، أحدهما له أهمية تجارية — وهو الصادر — أى مخازن التجارة الصادرة إلى الخارج تحملها سفن الفرنجة التى كانت تفتد إلى الميناء الشرقية فحسب ، ولا تجرؤ على الدخول في الميناء الغربية الخاصة بسفن المسلمين ، وثانيهما له أهمية صناعية وهو دار الطراز^(٢) ، ودار الطراز مصطلح كان يطلق في تلك العصور على مصنع النسيج ، وهى على نوعين : دار الطراز الخاصة وبها تنسج ملابس السلطان وخاصته وحريمه ،

(١) من العجيب أن دار المحكمة الكلية الأهلية بالإسكندرية الآن تقع في المكان الذى كانت تقوم عليه دار العدل المملوكية أو بالقرب منها ، فالنويرى يذكر أن دار العدل كانت تقع بالقرب من باب البحر ، والمحكمة الحالية تقوم على مقربة من موضع هذا الباب القديم .

(٢) بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من مراجع عن دار الطراز ، انظر : (القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٤٢٦ ، وفي نفس الجزء ، ص ٤٢٥ : نسخة توقيع بتعيين صلاح الدين بن علاء الدين على بن البرهان ناظراً لدار الطراز بالإسكندرية في سنة ٧٤١ هـ) . انظر أيضاً : (المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٣) .



والخلع التي يخلعها على رجال الدولة في المناسبات الخاصة : ودار الطراز العامة ، وبها تنسج الأقمشة الشعبية .

ويفهم من وصف النویری أيضاً أن الاسكندرية في أواخر القرن الثامن الهجري كان يحيط بها أسوار ثلاثة ، أحدها داخل مما يلي البلد ، وثانيها خارجي يشرف على ما يحيط بها ، والثالث بينهما ؛ فهو يقول وهو يصف موكب السلطان عند دخوله المدينة : « . . . إلى أن خرج من باب البحر الذي يلي البلد ، ثم سار وخرج من باب البحر الثاني ، ثم الثالث ، فشاهد البحر المالح ، والمينة بها مراكب الفرنج »

وكان هناك بين كل سور والآخر فصيل يفصل بينهما ، كما كان للسور الخارجى المطل على البحر أبراج وقلاع ضخمة مشحونة بالعدد والأسلحة والأتراس وتخفق عليها الأعلام .

وكان للسور الخارجى أبواب عدة ، أهمها : باب رشيد في شرق المدينة ، وباب البحر في شمالها ، والباب الأخضر وباب القرافة في غربها ، وباب سدره أو باب العمود أو باب البهار في جنوبها .

وذكر النویری أيضاً أن الأشرف شعبان لما خرج من باب البحر الخارجى شاهد الخندق الحديد الذي أنشأه نائب المدينة الأمير صلاح الدين بن عرام بعد وقعة القبارصة « ولم يكن قبل في ذلك المكان خندق » ، كما ذكر أنه كان هناك خندق آخر يحيط بالسور من ناحيته الغربية عند الباب الأخضر .

وفي وصف النویری تحديد لبعض معالم المدينة الهامة الأخرى ، فهو يذكر أن دار صناعة السفن كانت تقوم بالقرب من دار الطراز ، وأنه كان بالمدينة داران للصناعة إحداهما بالميناء الشرقية ، والثانية بالميناء الغربية ؛ كما كان بها قصر السلاح بالقرب من الباب الأخضر ، وهو قصر ذو قاعات كثيرة مملوءة بالأسلحة والعدة والعتاد ، أنشأ كلا منها سلطان من سلاطين المماليك وسماها باسمه ، وقد رسم السلطان الأشرف شعبان - في زيارته هذه - أن تنشأ بالقصر قاعة جديدة تحمل اسمه ، وكان لهذا القصر مسجد ملحق به ؛ وبالقرب من الباب الأخضر أيضاً يقوم ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى ، وعلى مسافة منه الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة في ذلك العصر .

هذه هي الإسكندرية حتى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، غير أننا

نلاحظ أن غزوة القبارصة كانت بالغة الأثر في تاريخ المدينة وعمرانها ، فقد قضت على الكثيرين من سكانها قتلاً وأسراً ، كما خربت الكثير من معالمها ، أما أهلؤها الذين فروا منها أثناء الواقعة ، فإنهم لم يعودوا إليها جميعاً ، فقلل سكانها ، واتضعت أحوالها : يقرر هذه الحقيقة المقرئى بقوله : « . . . فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم » .

فإذا كان القرن التاسع الهجرى فقد سارت الإسكندرية نحو التأخر والخراب خطوات حثيثة ، ولم يلتفت إليها من سلاطين هذا القرن إلا اثنان : الأشرف برسبای الذى أمر فى سنة ٨٢٦ بإعادة حفر خليجها ، وكانت قد طمرته الرمال وتعطلت السفن عن السير فيه ؛ والأشرف قايتباى الذى زار المدينة فى سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧) ، وأمر ببناء برجه الحديد حيث كانت تقوم المنارة القديمة التى كانت قد تهدمت تماماً فى ذلك الوقت ، وقد تم بناء هذا البرج بعد سنتين — أى فى سنة ٨٨٤ (١٤٧٩) ، وهو ما عرف ببرج قايتباى ثم طابية قايتباى (١) ، التى لا تزال قائمة فى مكانها حتى اليوم ، والتى أصبحت منذ ذلك الوقت من أهم المعالم المميزة للمدينة ، وإن كانت قد نالها شىء من التغيير ، وخاصة زوال مسجدتها الذى كان يبدو واضحاً بمأذنته العالية فى المصورات التى رسمت للمدينة فى القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

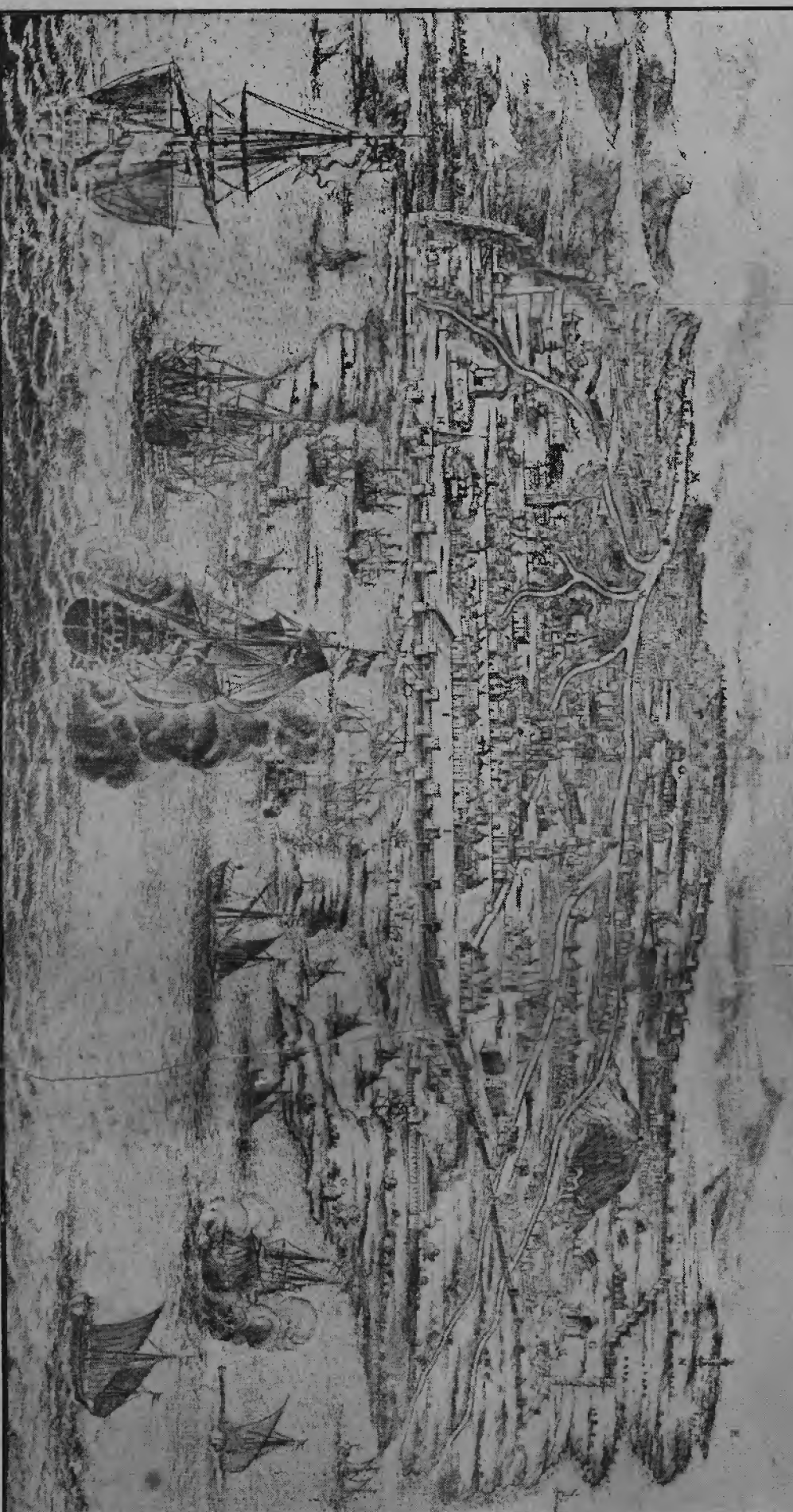
(١) بلغت نفقات إنشاء هذا البرج نحو التسعين ألف جنيه ، وكان يوجد بفنائها الداخلى مساكن للجند ، كما كان به مسجد ، وبالمسجد ضريح يزعم العامة بأنه ضريح قايتباى ، وهذا خطأ واضح لأن قايتباى مدفون فى مسجده المعروف بصحراء قايتباى خارج القاهرة ، وقد عنى بهذه القلعة السلطان الغورى عندما أحس قرب الخطر العثماني ، فلأها بالسلاح والعتاد ، وأصدر فى عام ٩٠٧ (١٥٠١) مرسوماً ينص على عدم السماح بإخراج سلاح ولا مكاحل ولا بارود منها ، وأن من يخالف ذلك يشنق على بابها ، ولا يزال نص هذا المرسوم مثبتاً حتى الآن فوق المدخل الثانى لهذه القلعة ؛ انظر : (حسن عبد الوهاب ، قلعة قايتباى أثر إسلامى عظيم وسط البحر) ، مقال بجريدة الأهرام فى ١٩٤٩/٧/٢٥ ؛

—Tousson(Omar): Note sur les Forts d'Alexandrie et de ses Environs. dans: (Bull. Soc. R. d'Arch. d'Alex. No.34. Alex. 1930); Combe (Et) : Notes sur les Forts d'Alexandrie et des Environs, dans: (Bull. Soc. R. d'Arch. d'Alex. No. 34.1940).

A. Poort van Kaar
 B. Vyl-poort
 C. Poort 2d Port
 D. 3de poort
 E. Alde structure of .Wons
 F. Vle Smeer Eijdel
 G. .Aloupe
 H. Grof maet
 I. .Mijns van Alexander
 K. .Fors
 L. Grof .Mae van Sme .Wons
 M. .Po .Vyl de dore .grachten
 N. .Klein van .Pomp
 O. .Mae van Sme .Katharina
 P. .Kijel van de .Meren
 onthoof is

De Stadt
 ALEXANDRIE
 of
 SCANDERIK
 in Ville
 ALEXANDRIA
 or
 SCANDERIK

A. La Port de Caire
 B. La Port de .Vyl
 C. La Port de .Pomp
 D. La Port de la .Mie
 E. La Port de .Mae
 F. La Port de .Mae
 G. .Mae
 H. .Mae
 I. .Mae
 K. .Mae
 L. .Mae
 M. .Mae
 N. .Mae
 O. .Mae
 P. .Mae



ونضيف إلى ما سبق أن بعض نواب المدينة كانوا يبذلون بعض الجهد لإصلاح أحوال المدينة ، وقد أقام نفر منهم بعض المنشآت فيها ، من هؤلاء :
الأمير قبحاس الاسحاق الظاهري الذي ولى نيابة المدينة من سنة ٨٧٥ إلى سنة ٨٨٠ ، فإن المراجع تذكر أنه بنى بها مسجداً خارج باب رشيد ، وأنشأ إلى جانبه تربة له وخاناً يأوى إليه المسافرون لينالوا شيئاً من الراحة قبل دخولهم المدينة ، كما أنه أنشأ رباطاً خارج باب البحر ، وجدد جامع الصواري خارج باب سدره^(١) ، وقد زالت مبانيه هذه جميعاً ولم يبق لها أثر .

وفي السنوات الأولى من القرن العاشر الهجري (١٦ م) ، كانت الدولة المملوكية قد نال منها الإعياء ، وأوشكت أن تحتضر ، وكانت الإسكندرية كلها قد انحدرت إلى حال من سوء شديدة يصورها ابن إياس تصويراً واضحاً وهو يصف زيارة السلطان الغوري لها ، فيقول : « فلما شق (أى الغوري) المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ في غاية الترحل والخراب » ثم يقول : « ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار — لا من المسلمين ولا من الفرنج — ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فإنهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل : طلب الخبز بها فلم يوجد ، ولا الأكل ؛ ووجد بها بعض دكاكين مفتحة ، والبقية خراب لم تفتح ، وكانت الإسكندرية من أجل مدائن الدنيا (٢) » .

(١) انظر : (السخاوي ، الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، ج ٦ ص ٢١٣) ؛
و (الأستاذ حسن عبد الوهاب المساجد الأثرية ، ج ١ ، ص ٢٦١) .

(٢) ابن إياس (بدائع الزهور ووقائع الدهور ، طبعة بولاق ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥)
وانظر أيضاً نفس الطبعة وأجزء ، ص ٤١٢ - ٤١٦ ، ونفس الكتاب ، طبعة كاله ومحمد مصطفى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ ؛ ومقالنا السابق الذكر (الإسكندرية في العصرين الأيوبي والمملوكي) ، و

Combe (Et): Les Sultans Mamlouks Ashrafs Sha'ban (764-778 H. 1363-76 A.D.)
et Chauri (906-922 H, 1501-16 A.D.) A Alexandrie dans : (Bulletin de la
Société Royale d'Archeologie d'Alexandrie. No. 30. 1936).

فى العصر العثمانى

هذه الصورة الشوهاء التى رسمها ابن إياس لمدينة الإسكندرية فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر — أى قبيل الفتح العثمانى لمصر مباشرة — تدل على مبلغ ما وصلت إليه المدينة من تأخر واضمحلال ، فلما فقدت مصر استقلالها ، وأصبحت ولاية تابعة للدولة العثمانية أصاب الإسكندرية ما أصاب مصر جميعها من إهمال ، فانكشت عن ذى قبل ، ونفق بوم الخراب فى نواحيها ، وأقفرت شوارعها ، وخربت دورها ، وأصبح العمران مقصوراً فيها على هذه الرقبة الممتدة بين الشاطئ وجزيرة فاروس والمطلة على المينائين ، فقد كان رصيف الهيئاتاديوم عند ما تحطم فى العصر العربى قد تراكت عليه الرواسب شيئاً فشيئاً إلى أن اتسعت رقعته ، فأقيمت عليه المباني .

هذه الرقعة كانت تعتبر حتى أواخر القرن الثامن الهجرى من أرباض المدينة — كما سبق أن ذكرنا — ، ولكنها فى العصر العثمانى أصبحت هى المدينة ذاتها ، ولهذا تسميها المصورات التى رسمت للمدينة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمدينة التركية ، فى حين تسمى المدينة الأصلية المحاطة بالأسوار المدينة العربية ؛ وهذه المدينة الأصلية أصبحت فى العصر العثمانى مهجورة ذات أطلال وخرائب ، وتنتثر فى نواحيها بعض الحقول والبساتين ؛ أما الأسوار وأبراجها فقد نالت منها يد البلى ، وأصبحت غير ذات غناء .

وعملت عوامل أخرى على تأخر المدينة واضمحلالها ، فقد سحب الفتح العثمانى كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة العالمية إليه ، ففقدت المدينة بذلك أهميتها التجارية ، وانقطعت الصلة بينها وبين أوروبا والعالم الخارجى ، وخاصة بعد أن اضمحل شأن معظم الدول التى كانت تتجر مع مصر وأهمها جمهورية البندقية والجمهوريات الإيطالية الأخرى ، وضعفت كذلك صلة الاسكندرية بموانئ الشام والدولة العثمانية ، فقد حلت مكانها دمياط ورشيد لأنهما أقرب منها إلى هذه الموانئ .

حقيقة لقد كان يحكم الإسكندرية فى هذا العصر قبودان يعين بمرسوم من السلطان ، كما انتقلت إليها بعض قنصليات الدول الأوروبية إلا أن هذا وذاك

لم يستطع أن يبعث فيها دم الحياة من جديد، فظلت تسير نحو التأخر والاضمحلال بخطى حثيثة ، وقل سكانها - تبعاً لذلك - حتى أصبحت - كما يصورها الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر - قرية صغيرة تقيم فيها حامية ضعيفة قليل عديدها لا تستطيع أن ترد عنها أى معتد ذى قوة .

هكذا تصورهما المصورات في ذلك العصر ، وبها بعض المباني (وأهمها بناء الجمرك وبعض دور القنصليات) والمساجد التي تقوم على رقبة الهبتستاديوم ، وتشرف على المينائين ، ويبرز من اطرافها بعض معالم المدينة القديمة التي استطاعت أن تقاوم عواذى الزمن ؛ وأهمها : قلعة قايتباى التي قامت على أنقاض المنارة القديمة في الطرف الشرق من جزيرة فاروس ، يقابلها برج آخر صغير في نهاية رأس لوكياس القديم ؛ ومسلتا كليوباترة تطلان على الميناء الشرقية ، وعمود السوارى يشرف على المدينة من الجنوب .

أما المدينة نفسها فتبدو خلاء أو كاخلاء ، ينبت في نواحيها بعض مآذن المساجد القديمة ، ويبرز في طرفيها نهضان من الأرض ، أحدهما في شرقيها وهو المعروف بكوم الديماس أو كوم الدكة ، والثاني في غربيها وهو المعروف بكوم الناصورة ، ويحيط بهذا الخلاء السور القديم وقد تشعث بنيانه وتهدمت أبراجه وحصونه .

ولم يبق في هذا العصر العثماني من المنشآت الجديدة إلا النزر اليسير ، وخاصة بعض المساجد الصغيرة ، نذكر منها :

— مسجد الحاج إبراهيم ترابانة الذى إنشئ في سنة ١٠٩٧ هـ (١٨٦٥) (١)

— ومسجد عبد الباقي چورچى الذى أنشئ في سنة ١١٧١ (١٧٥٨) (٢) .

(١) حسن عبد الوهاب ، المساجد الأثرية ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢٧ - ٣٣٠ .



في سنوات الحملة الفرنسية الثلاث

هذه هي الإسكندرية وقت أن وصلها الفرنسيون في سنة ١٧٩٨ ، فلاعجب إذن أن رأينا هم يستولون عليها ويدخلونها بجيوشهم في يسر وسهولة ، فقد كانت طابية قايتباي كما وصفها « المسيو سافاري ^(١) Savary » : « لا تقوى على صد بارجة واحدة » .

وأكد هذه الحقيقة « المسيو فولني Volney ^(٢) » حين قال إن هذه الطابية لا تصلح - رغم أبراجها العالية - للدفاع عن المدينة ، « إذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للضرب ، وليس فيها رماة يحسنون الرمي بالقنابل ، وحاميتها المؤلف من خمسمائة من الانكشارية هبط عددهم إلى النصف » .

ولا يختلف عن هذا الوصف كثيراً ما كتبه « مسيو مور Mure » - فنصل فرنسا في مصر - في تقريره الذي قدمه لحكومته في سنة ١٧٨٣ ، يرغبها في المجيء إلى مصر والاستيلاء عليها ، فقد قال فيه : « إن مرافئ الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهليين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثماني ، أما قلعة المنارة فهي في ظاهرها فخمة ، ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية بها لا تصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد » ^(٣) .

ففي أواخر القرن الثامن عشر لم يكن باقياً من الإسكندرية القديمة العظيمة سوى الأطلال ، وكانت قد تحولت إلى مدينة صغيرة تقع شمالي المدينة القديمة ، وتنحصر في شبه الجزيرة التي بين المينائين الشرقية والغربية - كما تحددها المصورات التي رسمها علماء الحملة لها - ، وكان « حدود هذا العمران ينتهي شمالاً في مقابلة شبه جزيرة رأس التين ، فكانت جميع الجهات الواقعة بين البحر شمالاً وشارع أبي وردة إلى جامع أبي العباس بعضها مدافن ، وبعضها تقع ،

(١) زار الإسكندرية سنة ١٧٧٧ .

(٢) زار الإسكندرية سنة ١٧٨٣ - أي قبل الحملة بخمس عشرة سنة .

(٣) انظر : (عبد الرحمن الرافعي بك ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ١٦٨) .

ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت للصيادين بالجهة المعروفة بالسيالة ، وكان حد المدينة من الجهة القبيلة الحارة المعروفة الآن بحارة المغاربة قريباً من ميدان محمد على « (١) »

أما المدينة القديمة التي كانت قد أصبحت خلاء أو شبه خلاء ، فكان لا يزال يحدد معالمها السور القديم ، وكان طول هذا السور — كما قاسه علماء الحملة — ٧٨٩٣ متراً ، وكان يتخلله مائة برج ، لا ترجع جميعاً إلى عهد واحد ، بل هي خلاصة جهود ملوك مصر وسلاطينها العظام في العصر العربي الطويل ، ولم يكن هذا السور وقت وصول الحملة يحيط إلا بفضاء عظيم من الخرائب « قد خلا من المساكن » فيسير فيه الإنسان عدة ساعات دون أن يرى من معالم العمران سوى الأطلال الدارسة ، ولم يبق به إلا صهاريج المياه ، وأربعة كنفور يسكنها خدام البساتين التي بداخل السور ، وحراس القلاع والأبراج ، وكان معظم هذه الأبراج متخرباً ، وفي السور ثغرات وفتحات سببها الإهمال وسوء الإدارة « (٢) »

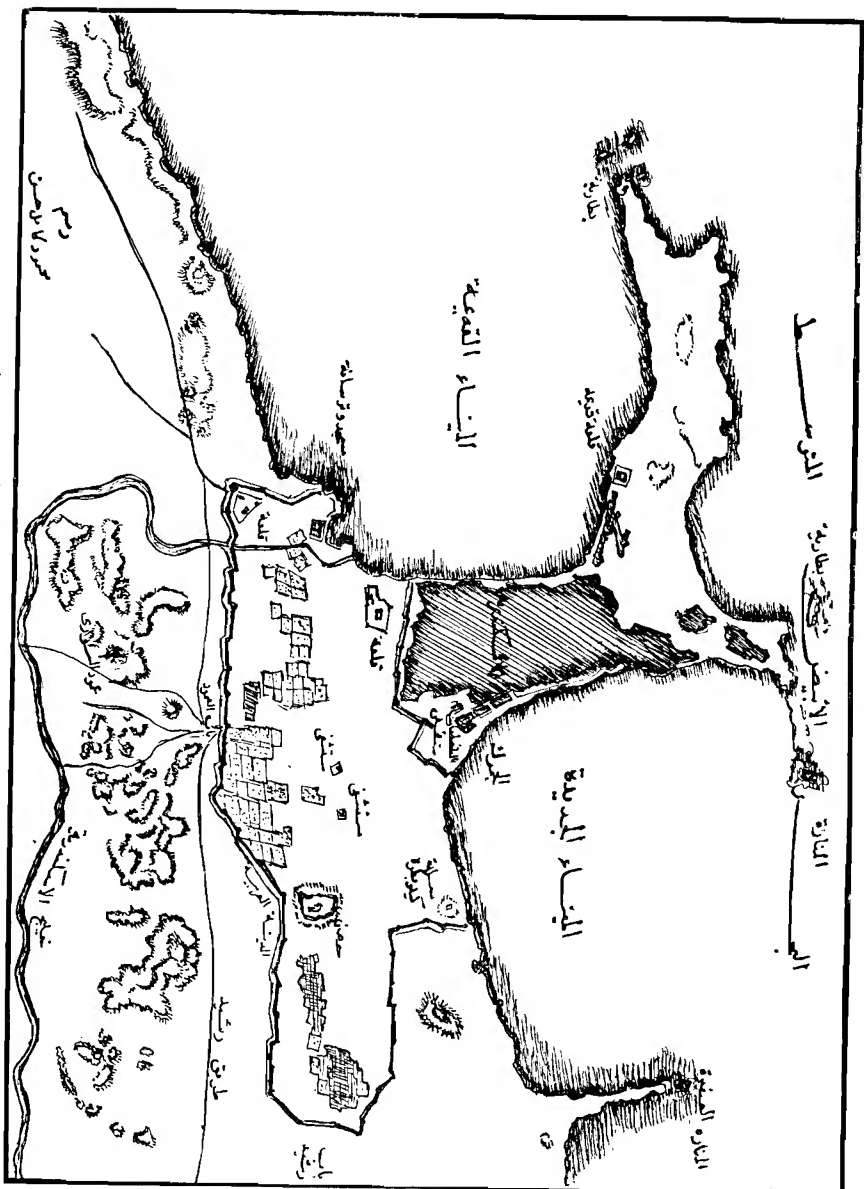
وقد عنى الفرنسيون بالمدينة بعد استيلائهم عليها عناية خاصة ، فرموا أسوارها وأصلحو حصون هذه الأسوار وأبراجها ، وعنوا بتحصين قلاع الساحل القديمة — وخاصة قلعة قايتباي وقلعة أبي قير — ، ونصبوا فيها مدافعهم الجديدة ، وأنشأوا في قلب المدينة القديمة قلعتين جديدتين على ذلكما النهدين المرتفعين في شرقها وغربها ، القلعة الأولى على كوم الدكة ، وسميت « قلعة كرتيان » تخليداً لاسم بانها « الكولونيل كرتيان » ، والثانية على كوم الناصورة ، وسميت « قلعة كافريلي » تخليداً لاسم المهندس الفرنسي المشهور « الجنرال كافريلي » ، كما بنوا قلعة ثالثة في جزيرة العجمي مكان برج قديم متهدم كان قائماً بها .

وقد قام علماء الحملة بدراسة المدينة كما وجدوها دراسة علمية مفيدة ، ورسموا لها مصورات جغرافية هي أول مصورات علمية دقيقة رسمت للمدينة ويمكن الاعتماد عليها عند دراسة طبوغرافية المدينة ، ثم كتبوا عنها بحوثاً أربعة مفيدة نشرت فيما بعد في كتاب الحملة القيم : « وصف مصر Description de

: L'Egypte »

(١) نفس المرجع ، ص ١٦٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٦٦ .



الإسكندرية سنة جلاء الحملة الفرنسية فيها (١٨٠١)

كتب البحث الأول عن طبوغرافية المدينة القديمة أحد مهندسى الحملة وهو « سان جنيس Saint Genis » ، وقد اعتمد فيه كاتبه على المشاهدة والإفادة من المراجع القديمة ، ويعيبه - رغم قيمته - أنه لم يعتمد على الحفر والتنقيب - كما فعل الفلكى باشا فيما بعد - ، وقد نشر هذا البحث فى المجلد الخامس من وصف مصر^(١) .

وكتب البحث الثانى عن وصف الإسكندرية « المسيو جراتيان لويير Gratien Le Père » ، وقد اعتمد فيه - كزميله - على مشاهداته وعلى ما ذكره كتاب العرب والفرنج عن المدينة فى كتبهم ورحلاتهم ، وقد نشر هذا البحث فى المجلد الثانى من « وصف مصر »^(٢) .

وهناك بحثان آخران أقل أهمية من البحثين السابقين ، كتبهما مهندسان من مهندسى الحملة ، هما « نورى Norry » و « مارتان Nartin » ، وقد نشر فى المجلد الخامس من نفس الكتاب^(٣) .

ورغم هذه العناية الفرنسية بتحسين المدينة ودراساتها ، فإنها لم تتقدم خطوة واحدة فى عهدهم ، بل لعبها تأخرت خطوات ، بدليل أن سكانها قد قل عددهم فى نهاية عهد الحملة عما كان عليه فى أول هذا العهد^(٤) ، وكان ذلك نتيجة طبيعية للحوادث التى شهدتها المدينة فى سنوات الحملة الثلاث ، فقد كانت مسرحاً للاضطهادات والمصادرات وفرض الضرائب ، كما كانت مسرحاً للصراع

(١) Saint-Genis : Description des Antiquités d'Alexandrie et des ses Environs. dans la "Description de l'Egypte" t. V. P.p. 181-507; Explication des Planches, X, P.p.509 ss.

(٢) Lepère (Gratien) : Mémoire sur la ville d'Alexandrie. dans la "Description de l'Egypte". Etat Moderne, tome 2, partie 2, P.p. 269-324.

(٣) Norry : Description de la Colonne dite de Pompée. dans la "Description de L'Egypte" t. V, P.p. 508-518; Martin(P) : Notice sur un grand monument souterrain à l'Ouest de la Ville d'Alexandrie. Op. Cit. P.p. 519-530.

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى بحثين هامين آخرين نشر فى الحلة العشرية التى كانت تصدرها الحملة أثناء مقامها فى مصر وهما :

— Lancret et Chabrol : Mémoire sur le Canal d'Alexandrie (Décade Egyptienne. Kaire, an VIII. t. 2. P. 233-251);

— Nouet : Rapport sur les observations faites pour déterminer la position Géographique d'Alexandrie et la direction de l'Aiguille aimantée.(Décade Egyptienne. Kaire. an VII, t. I., P.p. 165-182).

(٤) كان سكان المدينة وقت نزول الحملة - تبعاً لإحصائية « لويير » - ٨٠٠٠ نفس

وقد نقص هذا العدد فى آخر عهد الحملة إلى ٧٠٠٠ .

العنيف بين قوى الدول الثلاث : فرنسا وإنجلترا وتركيا ، وقد شهدت أراضيها وسواحلها معركتين من أهم المعارك ، وهما معركة أبي قير البحرية ومعركة أبي قير البرية ، ثم انتهى الأمر بمحاصرة القوى الفرنسية داخل أسوار المدينة إلى أن خضعت وسلمت ، وكان من نتائج هذا الحصار أن خربت القلاع التي بنوها ، وتشعث الأبراج والأسوار التي رموها ، وبذلك عادت المدينة إلى ما كانت عليه قبل قدوم الفرنسيين ، بل لعلها عادت إلى أسوأ مما كانت عليه .

الإسكندرية الحديثة

من عصر محمد على الكبير إلى عصر فاروق الأول

لئن اعتبر الاسكندر المنشئ الأول لمدينة الإسكندرية فإن محمد على يعتبر بحق المنشئ الثاني لها ، فقد تولى عرش مصر والإسكندرية كما وصفنا مدينة خربة قد انحصرت - كما وصفها الواصفون وكبا صورها المصورون - فيما كانوا يسمونه بالمدينة التركية ، وهى ذلك الشريط من الأرض المحصور بين المينائين ، وسرعان ما لحظها محمد على بعين رعايته حتى أصبحت فى مدة سيرة العاصمة الثانية لمصر ويكفى للدلالة على تقدمها أن تعداد سكانها قد قفز من سبعة آلاف فى أول عهده إلى نحو مائة ألف فى آخر عهده .

بدأ محمد على بتحسين المدينة لأهميتها البحرية والحرية ، فرم أسوارها وقلاعها وأنشأ جملة من القلاع لحماية الشاطئ من منطقة العجمى إلى رشيد ، ثم عمل بعد ذلك على تنظيم المدينة ، فأنشأ بها فى سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧ - ١٨٠٨) « ديوان ملكى الإسكندرية » وهو ما عرف فيما بعد بمحافظة الإسكندرية ، وأنشأ بعده جملة من الدواوين والمجالس واللاجان ، كان أهمها : مجلس الصحة أو « لجنة التحسينات » - كما كانت تسمى - . وكان هذا المجلس الذى أنشئ فى سنة ١٨٣٤ يتكون فى معظمه من أعضاء أوروبيين ؛ وقد أحدث فى المدينة جملة من التحسينات والتغييرات كان من أثرها امتداد العمران فى المدينة القديمة ، وتنظيمها على الوجه الذى نراها عليه الآن ؛ فمن هذه التحسينات قراره بإزالة الجبانات القديمة من وسط المدينة ونقلها إلى خارج الأسوار حيث أنشئ لكل طائفة جبانة خاصة ، فواحدة للمسلمين ، وثانية للأقباط ، وثالثة لليونانيين ، ورابعة للأرمن ، وخامسة لليهود . . وهكذا ؛ وهذه هى الجبانات التى أصبحت تتوسط المدينة الآن فى منطقة الشاطي بعد أن امتد العمران فيما بعد إلى حى الرمل . كذلك عمل هذا المجلس على ردم المستنقعات التى كانت تتخلل المدينة ، ونقل سوق السمك والمذبح إلى أطرافها ، كما اهتم بتسهيل الحركة والمرور فى الشوارع وملاحظة المباني القديمة ، وأصبح من غير الممكن أن يقام مبنى جديد إلا إذا أقره ووافق عليه هذا المجلس .

وكان أول تغيير أصاب المدينة القديمة وطبوغرافيتها تخطيط المنطقة المطلة على الميناء الشرقية (وهى المنطقة الممتدة من ميدان محمد على إلى محطة الرمل الحالية) وإقامة المباني الحديثة عليها ، فقد كان الجزء المطل على الميناء الشرقية من حى المنشية (وهو المعروف حينذاك بالحى الإفرنجى) لا يضم إلا بعض الوكائل القديمة المهدامة ، فأزيل معظمها ، كما هدم قسم كبير من أسوار المدينة المطلة على البحر ، لتحل محلها المباني الجديدة (١) ، وخطط ميدان جديد مستطيل الشكل طوله ٨٠٠ قدم ، وعرضه ١٥٠ قدماً وهو المعروف الآن بميدان محمد على ، « وشيدت المباني الحافة به من كل جهة على الطراز الأوروبى ، وبحسب تصميمات هندسية متقنة ، ويملك سمو إبراهيم باشا بعض هذه المباني الشاهقة ، ويسكن بعض قناصل الدول الكبرى البعض الآخر ، ودار القنصلية الفرنسية منها تمتاز على دور القنصليات الأخرى بمتانة بنائها وجمال هيئتها (٢) » . وبُنيت على أحد جانبي هذا الميدان الكنيسة الإنجليزىة التى لا تزال موجودة الى الآن ، وأقيمت فى وسطه فوارة جميلة من الرخام (٣) .

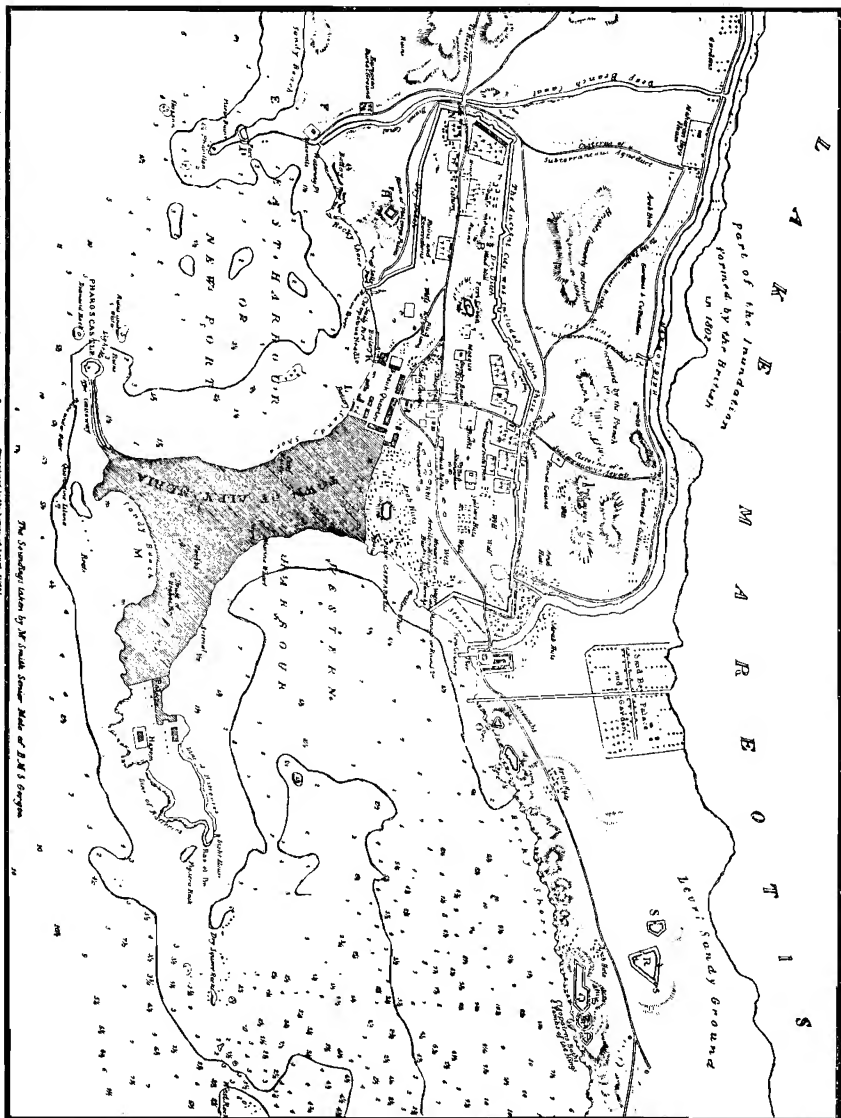
وهكذا بدأ العمران يمتد فى المدينة القديمة ، وبدأت الروح تعود إليها ، وخاصة بعد أن أنشأ محمد على ترعة المحمودية التى تسير فى معظمها مع الخليج الناصرى القديم ، وكان هذا الخليج قد أهمل إهمالاً تاماً حتى طمرته الرمال ، وانقطعت بذلك المواصلات بين الإسكندرية وداخل القطر ، وتم إنشاء هذه الترعة فى سنة ١٨٢٠ ، (٤) فأصبحت الإسكندرية بعد إنشائها ، وبعد إصلاح الميناء وتنظيمها ، أكبر مدن مصر التجارية . وقد منح محمد على نفراً من المصريين ونفراً من الأوربيين الأراضى على جانبي هذه الترعة ، فأقاموا عليها المنازل تحيط

(١) كلوت بك ، لحة عامة إلى مصر ، الترجمة العربية بقلم محمود مسعود ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤١٩ .

(٣) تقرير « كامبل » ، الترجمة العربية فى كتاب : (الدكتور محمد فتود شكرى وزميله ، « بناء دولة » ، ص ٧٩٤ - ٧٩٥) .

(٤) يعتبر حفر هذه الترعة من أهم وأعظم المشروعات العمرانية التى قام بها محمد على ، انظر تفصيل الحديث عنها فى : (كلوت بك ، المرجع السابق ، ص ٤١٥ ، ٧٠٢) ؛ (والدكتور شكرى ، المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٤٣) ؛ (والكتاب القيم الذى وضعه المغفور له الأمير عمر طوسون بعنوان « خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية » ، الإسكندرية ، ١٩٤٢ ؛ وما به من مراجع)



الإسكندرية وأواخر عصر محمد علي (سنة ١٨٤١)

بها الحداثق والمزارع^(١) ؛ وهكذا امتد العمران مرة أخرى إلى هذه النقطة من المدينة القديمة .

وشغف محمد على حباً بمدينة الإسكندرية لموقعها الممتاز ، ولأهميتها الحربية والتجارية ، فكان يؤثر الإقامة بها ، ولهذا بنى في الطرف الغربى من جزيرة فاروس (رأس التين) قصراً عظيماً جميلاً هو المعروف بسرأى رأس التين^(٢) ، كما بنى محمد على وأبناءؤه قصوراً كبيرة أخرى فى أطراف المدينة ، كان أهمها : قصر المحمودية ، وقصر القبارى .

وكانت سرأى رأس التين تتكون من الحرملك، والديوان ، والحجرات الخاصة بمحمد على والمسافر خانة التى أعدها لضيافة كبار الزائرين والمسافرين وإكرامهم . ومن هذه السراى كان محمد على يشرف على دار الصناعة^(٣) الحديدية التى أنشأها بعد موقعة « نفازين » ، وقد أعادت هذه الدار أعجاد دور الصناعة القديمة التى شهدتها المدينة فى عصورها المختلفة ، ففيها أصبحت تصنع سفن الأسطول المصرى الكبيرة بعد أن كانت تستورد جميعاً من أوروبا قبل ذلك .

وفى طرف جزيرة رأس التين أمر محمد على بإقامة منارة كبيرة لهداية السفن ،

- (١) تقرير « كامبل » ، الترجمة العربية فى المرجع السابق ، ص ٧٩٤ - ٧٩٥ .
 (٢) تتبع تطور هذا القصر الأستاذ حسن عبد الوهاب فى مقال له بعنوان « الإسكندرية بين محمد على والفاروق » نشرت فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٤٩/٧/٨ ؛ قال « - واستمرت العمارات متوالية عليه ما بين تجديد وفرش وزيادة منذ سنة ١٢٣٤ إلى سنة ١٢٦١ هـ ، وقد بلغ من عنايته به أن أشرف نعلا على رسومه ونقوشه وتأثيثه واختيار الألوان والطرز التى تتلائم معه ، وكثيراً ما استقبل فيه الشخصيات البارزة من الهيئات السياسية ، وقد عنى به المغفور له إسماعيل باشا فأصلحه وجدد أثاثه ، وظل القصر قائماً إلى أن احترق فى حوادث الإسكندرية سنة ١٨٨٢ م ، ثم تولت عليه الإصلاحات والتجديد إلى أن جدد إنشاء المغفور له الملك فؤاد الأول ، واحتفظ ببعض تفاصيله القديمة وأهمها تفاصيل مدخله الرئيسى بعمده وشارته وكتابات المتضمنة اسم محمد على وكلمات مأثورة فى العدل ، وتاريخ سنة ١٢٦١ هـ » . انظر أيضاً الفصل القيم الذى كتبه الأستاذ فييت فى كتابه الذى أخرجه أخيراً الجمعية الملكية للدراسات التاريخية :

Wiet (G) : Mohammed Ali et Les Beau Arts. Le Caire, 1950. P.p. 195-217.

- (٢) عن هذه الدار انظر : (كلوت بك ، لحة عامة إلى مصر) ؛ (وبعد الرحمن الرافعى بك ، عصر محمد على) ؛ (وعلى مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، الجزء الخاص بالإسكندرية) ؛ (وإسماعيل سرهنك باشا ، حقائق الأخبار عن دول البحار) ؛ (والدكتور شكرى ، المرجع السابق ، ص ٤٨٥ وما بعدها)

ارتفاعها ٦٥ متراً ، وقد أشرف على بنائها المهندس المصرى النابغة مظهر باشا^(١). وبعد إنشاء دار الصناعة صدر أمر محمد على فى شعبان سنة ١٢٤٢ (مارس ١٨٢٧) إلى « بلال أغا - ناظر الترسانة بالإسكندرية - بإنشاء مستشفى بالإسكندرية فى المحل الذى يستحسنه حكيمباشى النفر »^(٢) وقد أنشئ هذا المستشفى حيث يقوم المستشفى الأميرى الآن لمعالجة الجنود البحرية - وكان يعرف بمستشفى المحمودية - ، وأعد لكى يتسع لنحو ألف وخمسة مريض ، كما كان يتردد عليه الأهالى للعلاج ، ونسأولهم الحوامل ليلدن به^(٣) ، ثم أنشئ بعد ذلك مستشفى آخر للجنود البرية كان يعرف بمستشفى رأس التين ، وكان يسع نحو ٦٠٠ مريض .

وفى سنة ١٨٣١ انتشر فى مدن مصر المختلفة - ومنها الإسكندرية - وباء الكوليرا ، فقرر محمد على إنشاء محجر صحى فى المدينة على نخط المحاجر أم المعازل الأوربية ، وقد عرف هذا المحجر فى ذلك الوقت باسم « كورنيتلة » أو « لازاريتو » ، ومن الغريب أن دار الحجر الصحى الحالية تقوم على القرب من مكان هذا المحجر القديم فى الحى الذى ما زال يحمل الاسم محققاً « الأزاريطة » حتى اليوم .

وكان من الطبيعى وقد اتسعت المدينة ونظمت وكثر تعداد أهلها أن تشملها النهضة التعليمية التى شهدها عصر محمد على ، فأنشئ بها فى عهده مدرسة ابتدائية . وثانية تجهيزية : وثالثة ثانوية للطب^(٤) .

وفى عصر محمد على أنشئ بريد يربط الإسكندرية بالقاهرة ، وينقل رسائل الحكومة وبعض رسائل الأفراد ، أما رسائل التجار فقد كان ينقلها بريد آخر خاص يصل إلى القاهرة ثلاث مرات فى الأسبوع ، كما أنشئ خط تلغرافى بين العاصمتين لنقل الرسائل السريعة^(٥) .

(١) كلوت بك ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .

(٢) شكرى ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٣) كلوت بك ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٢١ ؛ وشكرى ، ص ٦٧٤ .

(٤) تقرير « بورنج » ، الترجمة العربية فى المرجع السابق ، ص ٦٣٧ ، ٦٣٩ .

٦٧١ ،

(٥) « بورنج » ص ٥٢١ .

وفي عهد عباس الأول بدأ إنشاء خط السكة الحديدية الذي يصلها بالقاهرة وقد تم إنشاء هذا الخط في عهد سعيد ، وإنشاء هذا الخط — ولو أنه لا يعتبر من التغييرات التي أصابت المدينة وطبوغرافيتها — إلا أننا نشير إليه لما كان له من نتائج هامة في ازدياد العمران والنشاط التجارى بالمدينة بعد أن سهلت المواصلات بينها وبين العاصمة وداخل القطر .

وإذا كان عصر محمد على يعتبر عصر الإحياء الأول لمدينة الإسكندرية فإن عصر إسماعيل يعتبر بحق عصر الإحياء الثانى ، ففي عهده أكمل تخطيط المدينة الحديثة ، وفتح كثير من الشوارع الجديدة مثل : شارع إبراهيم باشا ، وشارع الجمرك ، وأقيمت كثير من المباني الحديثة ، وأثيرت الشوارع بغاز الاستصباح ، ووصلت أنابيب المياه النقية إلى المنازل ، وأنشئت المجارى تحت الأرض ، وبنيت المستشفيات ، وأقيم تمثال محمد على فى ميدان المنشية ، وافتتحت المحكمة المختلطة فى سنة ١٨٧٦ فى « سراى الحقانية » التى لا تزال موجودة حتى اليوم فى ميدان المنشية ؛ وأنشئت بلدية الإسكندرية ^(١) للعناية بالمدينة وصحتها وتنظيمها ونظافتها ، وحول البريد إلى مصلحة حكومية .

وبدأ العمران يمتد إلى حى الرمل فقد أنشأ به إسماعيل قصر الرمل (فى منطقة مصطفى باشا الحالية) ، كما وهب إسماعيل قطعاً كبيرة من أراضى هذا الحى لكثير من الأجانب ، فأقاموا عليها القصور الجميلة تحيط بها الحدائق الغناء ومنهم « الكونت زيزينيا » الذى أنشأ مسرح زيزينيا ، وبه تسمى إحدى محطات خط الرمل حتى اليوم .

وعلى شاطئ المحمودية أنشأ إسماعيل حديقة الزهرة أجمل وأروع حدائق الإسكندرية حتى اليوم ؛ وفى عهده أنشئ خط حديدى جديد لربط الإسكندرية بمدينة رشيد .

ولسنا نشير هنا إلى تقدم الثقافة والصحافة والمسرح فى المدينة فى هذا

(١) انظر : (الدكتور محمد مصطفى صفوت ، الإسكندرية فى العصور الحديثة ، فصل من كتاب الإسكندرية الذى أصدرته غرفتها التجارية سنة ١٩٤٩) .



الإسكندرية على عهد الخديو إسماعيل (سنة ١٨٦٥) كما رسمها محمود الفلكي باشا



الإسكندرية أواخر القرن ١٩ م (سنة ١٨٨٧)

Sketch of: **MILITARY HISTORY**
OF
THE CAMPAIGN OF 1883
IN EGYPT

PREPARED IN THE INTELLIGENCE BRANCH OF THE WAR OFFICE

BY COLONEL J. F. MATHIAS, R.A.

Sketch, Showing the Fortified Position occupied by the British Troops

under Sir A. Alison

at Ramleh on Monday 23rd July 1883

From Rough Sketch furnished by Major George Lewis

dated 27th September

Scale: 1 inch = 1/2 mile or 1/2 km.

Scale: 1 inch = 1/2 mile or 1/2 km.

The following guns were in position on the 22nd August 1883:

At Ramleh

4 x 45⁰ Siege Guns (indicated)

8 x 15⁰ Field Guns (indicated)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

1 x 12⁰ B. Armstrong (12 in. diameter)

MEDITERRANEAN SEA

L. A. K. E. M. A. R. I. U. T. (HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

(HARBOR)

العصر ، فليس هنا مجال الحديث عنها ، ولكننا نشير إلى المنشآت الثقافية كعالم مميزة للمدينة ، ففي عصر إسماعيل أنشئت مدرستا رأس التين الابتدائية والثانوية في سنة ١٨٦٣ . كما أنشئت مدرستان للأقباط ، وكثير من المدارس التي أقامتها الجاليات الأجنبية التي نالت من عطف إسماعيل وهباته الشيء الكثير . وعنى إسماعيل عناية خاصة بالأسطول وتجديده ، فأصلح الميناء ، وأقام بها حوضاً عائماً لإصلاح السفن ، وبنى حاجزاً كبيراً لحمايتها من الأمواج والرياح العاصفة ، وأنشأ الأرصفة لشحن البضائع وتفريغها ، والفنارات لهداية السفن ، وأعاد الحياة إلى دار الصناعة ، وفيها بنيت في عهده سفن كثيرة ، كذلك عادت الحياة إلى المدرسة البحرية التي سبق أن أنشأها محمد علي ، وتخرج فيها عدد من أمراء البحر المصريين الممتازين ، نذكر منهم : إسماعيل سرهنك باشا صاحب كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » .

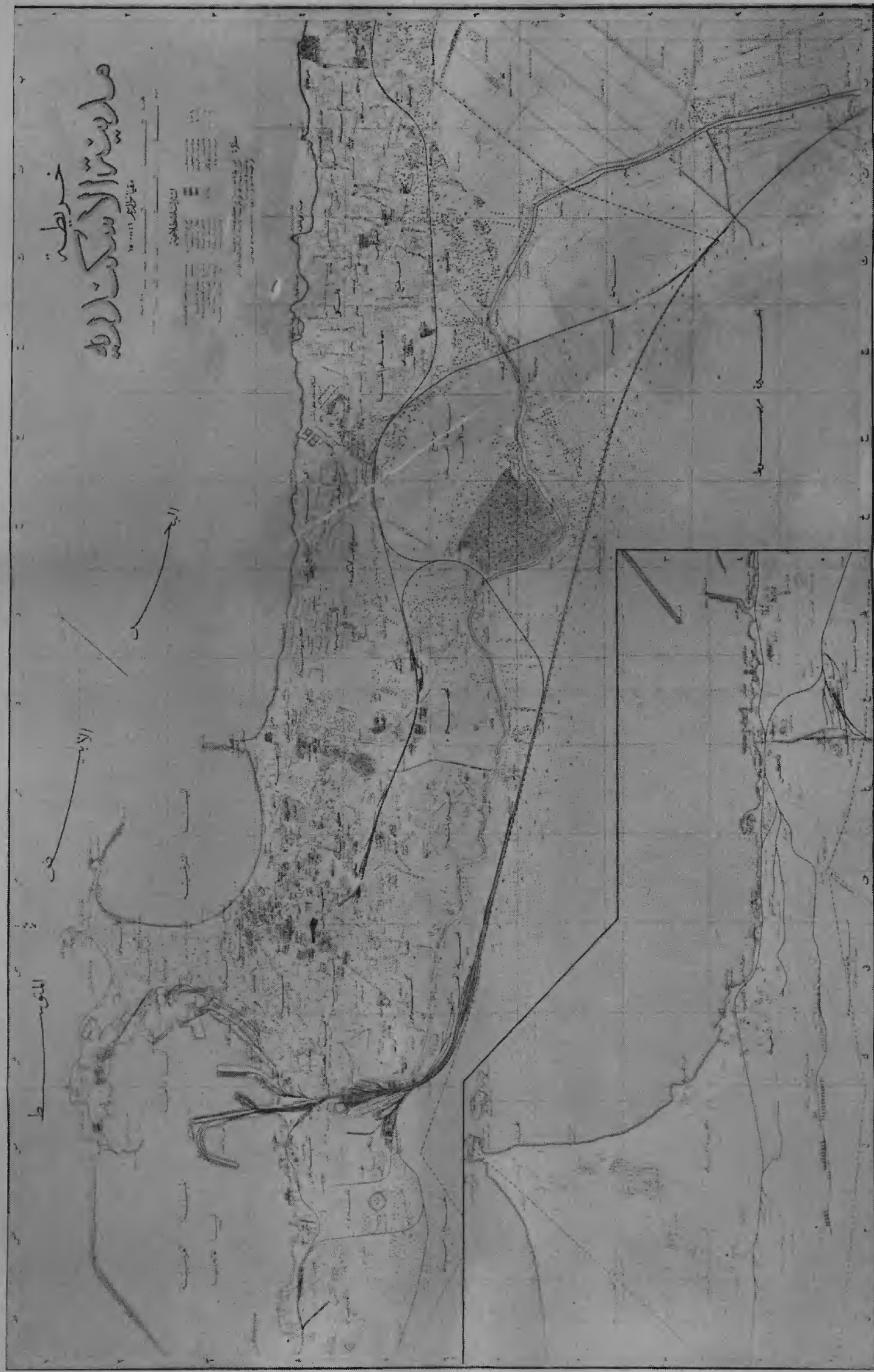
ثم وقف بالمدينة التقدم قليلاً ، بل لقد كان من عقابيل الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي أن خربت معظم أحياء المدينة الحديثة ، وهدمت مبانيها نتيجة لما أصابها من قنابل الإنجليز ومدافعهم (١) . وقد عنى الخديو عباس الثاني بالإسكندرية عناية خاصة فأنشأ بها المنشآت الكثيرة نخص بالذكر منها مدرسة العباسية الثانوية التي بنيت على إحدى ربي محرم بك ، والتي تحتل مبانيها اليوم كلية العلوم بجامعة فاروق الأول ؛ وقصر المنتزه الذي بنى في أقصى الطرف الشرقي لشارع الكورنيش الحالي .

حتى إذا كان عهد الملك فؤاد فقد بدأت الإسكندرية تتعش من جديد ،

(١) انظر : (عمر طوسون ، كتاب ١١ يوليو سنة ١٨٨٢) ؛

— Count Patrice de Zogheb : Alexandria Memories. Alexandria, 1949;

— Lee Childe (Blanche) : Impression de voyage : Alexandrie et Le Caire, (Reveu des deux Mondes, Paris, 1882. t. 52. p.p. 303-341).



الإسكندرية على عهد فؤاد الأول (١٩٢٤)

وأهم تغيير أصابها في عهده هو إنشاء شارع الكورنيش في سنة ١٩٣٤ ،
الذى خلقها خلقاً جديداً وجعلها بحق عروس البحر الأبيض المتوسط ، وقد أتاح
إنشاء هذا الشارع الفرصة لامتداد العمران شرقاً في حى الرمل ، وساعد على امتداد
هذا العمران إقامة الحمامات والشواطئ للاستحمام على طول الشاطئ الذى يشرف
عليه هذا الشارع ، وسرعان ما نشطت حركة المباني في هذا الحى حتى أصبحت
تشغل أراضيه جميعاً ، وحتى أصبح هذا الحى يكون مدينة وحده ، وفي عهد هذا
الملك العظيم بنى الملعب الكبير الذى يعيد إلى الأذهان ذكرى الجمنازيوم القديم ،
كما أنشئ عدد كبير من المدارس الحديثة ، وفي سنة ١٩٢٨ أنشئ معهد فؤاد
الأول للأحياء المائية .

وفي عهد الفاروق العظيم اضطرد نمو الإسكندرية واتسعت حركة البناء
والعمران فيها ، وكان المجال الطبيعى لاضطراد هذا النمو ناحية الشرق مع امتداد
الشاطئ في حى الرمل ، وهكذا مع مضي السنين ومع ازدياد عدد السكان امتد
العمران في أطراف هذا الحى الشرقية حتى وصل إلى سراى المنتزه ؛
واستطالت المدينة حتى أصبحت شريطاً مستطيلاً يمتد من منطقة المكس غرباً
إلى سراى المنتزه شرقاً ، وشغلت المباني والمنشآت كل بقاع هذا الشريط ، وبلغت
المدينة من النمو والعمران والحضارة حداً لم تبلغه في أى عصر من عصورها السالفة .
ولقد شملت العناية المدينة في كل مرافقها ، فنظمت شوارعها ورصفت
وأنشئ فيها عد كبير من المستشفيات والمدارس والمعاهد العلمية ، كان أهمها
جميعاً جامعة فاروق الأول التى صدر المرسوم بإنشائها في صيف سنة ١٩٤٢ ،
ثم تفضل جلالته الفاروق بافتتاحها في حفل رائع أقيم في ٨ فبراير سنة ١٩٤٣
حيث قدمت الجامعة لجلالته الدكتوراه الفخرية ؛ وفي فبراير سنة ١٩٥٠ تفضل
جلالته - حفظه الله - بإرساء الحجر الأساسى لمباني هذه الجامعة في منطقة
الحضرة ، والأمل معقود على هذه الجامعة أن تعيد إلى الإسكندرية مجدها العلمى
القديم .

جمال الدين الشيال